دراسات في الأدب والشعر

قِصّتي معَ
مُحمد عبدالحليم عبدالله
(الغروب المستحيل)

الاستاذ الدكتور

حلمي محمد القاعود

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

1442هـ = 2021م

810.9

ا . ح

القاعود، حلمي محمد .

قصتي مع محمد عبد الحليم عبدالله (الغروب المستحيل) / حلمي محمد القاعود.- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، دار الجديد للنشر والتوزيع.

186 ص ؛ 17.5*25 (دراسات في الأدب والشعر)

تدمك : 8 – 770 -308 -977 -978

1. الأدب العربي – تاريخ ونقد.

أ. العنوان

رقم الإيداع: 14174

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركزي

هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201277554725-00201097564757

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

هاتف : 24308278 (0) 002013

محمول 661623797 (0) 002013 & 772136377 (0) 002013

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2021

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى :

الذين تذوب دموعهم في كلماتي، وأذوب في أشجانهم وحكاياهم.. الفقراء، أهلي، في الجنة العذراء.. تحية وامتنانا ووفاء.

حلمي

الفهرس

قصتي مع
محمد عبد الحليم عبد اللّه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. جاء بمعجزة البيان الخالدة، والرسالة الخاتمة، والشريعة الغراء، خيرا للإنسانية، وأملا في حياة تقوم على المودة والرحمة، وتعالج جروح البشر بالعمل الصالح والكلم الطيب، والحروف المضيئة، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل، وآله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين،

وبعد:

فمنذ خمسين عاما تقريبا بدأت إعداد هذا الكتاب، واستغرق ذلك عدة سنوات حتى ظهر مطبوعا لأول مرة ضمن مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية(الأعلى للثقافة الآن)، ومعه مقدمة للأديب الراحل يوسف الشاروني (يجدها القارئ عقب هذه الكلمة)، ودخل الكتاب بعد الطبع إلى مخازن الكتب بالمجلس الأعلى، فلم يره الناس إلا من خلال بعض الجهات الرسمية والثقافية التي يصل إليها على هيئة هدية أو ما يشبهها، أو من خلال النسخ القليلة التي أهداها إلى ، ووزعتها على من أعرف..

كنت فرحا وسعيدا لصدور كتاب يحمل اسمي في مطلع شبابي، لم يشغلني توزيع الكتاب أو اطلاع القراء عليه. حملت نسخ الهدايا وقمت بتوزيعها على الصحف والنقاد والاصدقاء، واستمتعت بقيمة المكافأة التي بلغت خمسين جنيها وقتها، خصم منها خمسة جنيهات وبعض الجنيه ضرائب ورسوما أخرى. مكافأة كبيرة لاشك بأسعار ذلك الزمان، ويصعب الحصول على قيمتها حاليا مقابل أي

مُؤَلّف وخاصة لمن ينشر بعيدا عن المؤسسات الرسمية التي لم تعد تنشر إلا لمن يعلنون الولاء التام للمسيطرين على هذه المؤسسات؛ وأنا لست منهم بالتأكيد!

مضى الزمان ونفدت نسخ الهدايا ولم يعد لدي نسخة واحدة، وسألني نجلي محمود باحث الدكتوراه في النقد الأدبي – عن الكتاب، وراح ينقب في مكتبتي، لم يعثر له على أثر، حتى اهتدي إلى صديق قديم، أعاره نسخته التي يحتفظ بها. وكانت مفاجأة طيبة، وراح محمود يسعى لنشرها، فبذل جهدا كبيرا ليحول الكتاب إلى صيغة (وورد) حتى يمكن إعداده للطبع. استغرق الأمر وقتا وجهدا، وخاصة في التصحيح وتفسير الكلمات المطموسة التي حال لونها بحكم تواضع الطبعة الأولى، بذل محمود جهدا كبيرا شاركت في بعضه حتى استوى الكتاب مقروءا بحمد الله.

***

في هذا الكتاب حاولت إنصاف محمد عبد الحليم عبد الله الذي ظلمه الواقع الثقافي، ولم يحتف به مثلما يحتفي بأشباه الموهوبين، وبعضهم لا يحسن الإملاء فضلا عن النحو والصرف والتراكيب. وأحسب أنني عشت حياتي منذ مطلع العمر منحازا للمظلومين في المجالات كافة، وأكره الظلم والظالمين، ولذا اهتممت بكثير من الأدباء الذين لم يجدوا إنصافا أو اهتماما، وقد دفعت ثمنا غاليا بسبب هذا الموقف، ولكنني راض ومطمئن، فلست في حاجة إلى من بيدهم المنح والمنع. لأن من يرفع يديه للخالق لا يمدها إلى المخلوق..

عرفني محمد عبد الحليم عبد الله يوم رحت مجمع اللغة العربية وكان مراقبه العام، بمناسبة فوزي بجائزة مجمع اللغة العربية في سنة الهزيمة السوداء، كنت قد طالعت عديدا من رواياته قبل ذلك بسنوات وشغفني أدبه، طالعت ما كتبه في الصحف والمجلات، وما أصدره من روايات وقصص، ورأيت فيها ملامح شبه ريفية بيني وبينه، واكتملت الرؤية حين زرته في بيته أكثر من مرة، وتعرفت على ابن شقيقة المقرب منه زغلول محمود عبد الحليم عبد الله، ثم شقيقه الراحل المستشار

بالمحاكم حينها عبد الوارث عبد الحليم عبد الله، وزرت قريته كفر بولين مركز حمادة بحيرة، مرات عديدة، في حياته وبعد رحيله، و تابعت الكتابة عنه بعد صدور هذا الكتاب في مناسبات متعددة، وكان السؤال الذي يلح علي: كيف يهتم به المستشرقون والأجانب، ولا يفكر فيه أبناء جلدته؟ إنهم حتى اليوم ما أقاموا له احتفالية، ولا يذكرونه في مجامعهم الأدبية الثقافية، بينما يلحّون بصيغ مختلفة على ذكر بعض الصعاليك الذي لا يملكون موهبة ولا يتميزون برؤية ناضجة، ولا يمثّلون روح الشعب المصري؟

من المفارقات أن أحدهم وظّف احتفالية محدودة أقيمت في محافظته، لتخدم غاياته التي أربأ عن وصفها إلا بأدنى الصفات، فأقول: إنها وصولية!

صحيح أن بعض الدراسات كتبت عنه بعد رحيله، ولكنها لا تتكافأ مع حجم عطائه وقدراته وموهبته، وانتشار كتبه التي توزع بعد نصف قرن من رحيله أكثر من توزيع كتب بعض المعاصرين، الذين تدعمهم الدعاية وتلح على أسمائهم ليل نهار!

أصدر الرجل في حياته ثلاثة عشرة رواية، وعشر مجموعات قصصية، وبعد رحيله صدر له رواية وكتابان يضمان مقالات أدبية ونقدية، وهناك عملان لم يظهرا أحدهما تمثيلية تليفزيونية للأطفال بعنوان على الزيبق، في ثلاثين حلقة، والأخر مشروع تمثيلية تلفزيونية أخرى عنوانها الضيف العزيز..

شدتني إلى الرجل إنسانيته، وتسامحه، وطيبته، وتواضعه، وحساسيته المفرطة تجاه الأوضاع العامة، وكان أدبه انعكاسا لهذه الصفات، التي توّجها بموضوعيته في تفسيره للقضايا الكبرى..

عقب الهزيمة جلست معه في غرفة الاستقبال، وأبديت له انزعاجي من خروج الشعب المصري في حشود ضخمة، شاركت فيها بنفسي في قريتي، للهتاف

للزعيم المهزوم، والمطالبة ببقائه، والعدول عن التنحي الذي كان قد أعلن عنه يوم التاسع من يونيه 1967.

ابتسم ابتسامة رقيقة، وأشار إلى نافذة الغرفة التي تطل على شارع المنيل،وقال لي:

- لو نظرت إلى أسفل ستجد على الرصيف المقابل فرشة خبز(لم تكن هناك أزمة في الخبز يومئذ)، ثم سألني: تصور ماذا جرى لها؟

لم أدرك مغزى سؤاله، ولكنه عاجلني قائلا:

- لقد انقض عليها الناس عقب خطاب التنحي؛ لدرجة لم يتركوا رغيفا واحدا!

وأردف شارحا:

- تصور لو لم يعد إلى الحكم ماذا كان الناس سيفعلون ببعضهم؟

قلت له باندفاع الشباب مقهورا:

- المهزوم في أية معركة يتنحى تلقائيا، ويتولى بعده من يعالج الموقف، ويغير السياسات الفاشلة.

ابتسم، وقال بهدوء:

- نحن لسنا مثل غيرنا. لقد تعوّد عليه الشعب، وينتظر منه حلا لكل مشكلاته

بعد فترة صمت كانت السماء تدوي بصوت فرقعة مزلزل، ناتج عن تفريغ الهواء بطائرة عسكرية نفاثة فيما يبدو، فالتفت إليّ متسائلا وهو يشير بيده إلى أعلى:

- أليس من حقي أن أعرف ماذا يحدث؟

ثم ابتسم ابتسامته الهادئة الساخرة:

- ولكننا شعب مختلف!!

فلم أعقب!

***.

وكانت حساسيته المفرطة سببا في رحيله فجأة. فقد ركب سيارة أجرة من دمنهور مع نجله هشام ليعود إلى قريته، وكان قد انتهى من لقاء مع محافظ البحيرة. وفي السيارة طلب من السائق أن يكون لابنه مقعد مثل الركاب الآخرين، وسيدفع له أجرة المقعد كاملة. رأي السائق بعد ركوب الرجل وابنه تدفق الركاب ورغبتهم في الركوب، فأزاح الطفل جانبا وأركب أحد المسافرين، فعاتبه الكاتب، وأفهمه أن الطفل مثل أي راكب يدفع أجرة كاملة، فاستدعى السائق أخلاق السفهاء، وأردفها بأن الناس تعيش في عهد الجمهورية.

لم يتحمل قلب الرجل، وانهار على الفور، واستدعيت الإسعاف، وعلم المحافظ بالأمر فتولى رعاية المريض الذي لم تُجْدِ معه محاولات الإنقاذ، وحم القضاء!

مع أنه كان يردد في بعض رواياته: "خذها ببساطة فكلنا بقر ساخط!"، فقد ذبحته الحساسية أمام شخص فهم الحرية فهما مغلوطا، وعامل الرجل مثلما يتعامل مع أنداده من السفهاء!

***

على أية حال، فقد كان حبي لمحمد عبد الحليم عبد الله وأدبه دافعا لأستنبط حياته وفكره وروحه الإنسانية، من خلال أدبه ورسائله ومقولاته. صحيح أن كتابي هذا حمل آراء نقدية وإشارات فنية، ولكن الغاية الأساسية كانت رسم صورة شخصية للرجل من داخل النصوص والكلمات، وهو ما اهتديت فيه بتجربة سابقة- مع الفارق- لميخائيل نعيمة حين كتب سيرة صديقه جبران خليل جبران، في كتاب حافل بالأفكار والرسائل والرؤى والتصوير ، ولعل تقصيري في بيان ذلك المنهج هو ما جعل الأستاذ يوسف الشاروني في تقديمه لكتابي، يتصور أنني سأتناول أدب محمد عبد الحليم عبد الله وفقا للدراسات الأدبية النقدية المألوفة.

ويبدو أنه تصور أن ما كتبته يفرض أن آخذ بأدوات نقدية تؤدي إلى الدراسة المألوفة..

في ذلك الحين كنت قد كتبت العديد من الدراسات النقدية نشرتها في بعض مجلات بيروت (الأديب، الآداب)، والكويت(البيان)، ومكة المكرمة(رابطة العالم الإسلامي)، والمغرب(دعوة الحق)، فضلا عن الرسالة(الإصدار الثاني) ومجلة الإذاعة والتلفزيون، ومعظم ما نشرته فيها كان نقدا أدبيا، مستفيضا، أو موجزا.

لقد اخترت الطريق الصعب في تقديم شخصية محمد عبد الحليم عبد الله، من خلال سطوره وحروفه، التي قرأتها كلمة كلمة لأقول للقارئ هذا هو الكاتب الذي أحبه في جانبه الإنساني، من كتاباته.

لا ريب أنها كانت مغامرة جميلة، وإن كانت شاقة، حفزت إليها مرحلة الشباب، وإنني أتعجب اليوم: كيف كنت جريئا وجسورا في ذلك الزمان البعيد لأكتب مثل هذا الكتاب لأردّ اعتبار الرجل الذي ظلمته الحياة الأدبية، ولم تنصفه؟ لقد كان بداية لإنصاف المظلومين في عديد من الدراسات التي أصدرتها فيما بعد.

من الطريف أن الأستاذ يوسف الشاروني- وكان صديقا كريما كثيرا ما حذرني في مرحلة الشباب من الكتابة في مجال النقد الأدبي، ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن أتخصص فيه علميا، وأصبح أستاذا له في الجامعة. كانت وجهة نظر الأستاذ الشاروني- وقد مارس النقد إلى جانب السرد القصصي والنثر الشعري أن الناقد الأدبي في مصر يخسر دائما، فإذا كتب لا يكافأ إلا نادرا، والمكافأة قليلة دائما، ثم إن من يكتب عنهم يكرهونه إذا كتب مالم يعجبهم، ومن تعجبهم كتابته اعتقدوا أنه صارا كاتبا (ملّاكي)، يجب ألآ يتأخر في الكتابة عن كل عمل يصدر لهم، وإلا خاصموه وعدّوه في الجانب الآخر!

وواضح أنه يصدر في نصيحته هذه عن تجربة حية عاشها، وسوّغها بالقول: إن كتابة القصة والرواية أفضل من كتابة النقد الأدبي، فالقصة أو الرواية في رأيه،

يمكن أن تتحول بعد نشرها أو قبله، إلى تمثيلية إذاعية أو تلفزيونية أو فيلم سينمائي، وبعضها يمكن مسرحته، أي نقله إلى المســرح، وفي كـل الأحـوال هنـاك مكافـآت مرضية لا يأتي بها النقد الأدبي أبدا.

مهما يكن من أمر فقد جرت في النهر مياه كثيرة، انشغلت عـلى مـدى نصـف قرن بالنقد الأدبي إلى جانب القضـايا العامـة، وأخـيرا مـع تبـدل الأحـوال وتغـيّر الظروف، استأنفت الكتابة السردية التي انقطعت عنها منـذ السـبعينيات في القـرن الماضي، فكتبت سيرتي الذاتية في ثلاثة أجزاء، وانتهيت من كتابة مجموعة قصصـية، وست روايات حتى الآن تطرق أرضا غير مألوفة، وموضوعات لم تسبق معالجتها.

وها هو نجلي محمود يعيدني نصف قرن إلى الوراء، فأستعيد كتابا سكبت فيـه عصـارة عـواطفي، وصـورت فيـه روح كاتـب عظـيم، سردا متّشـحا بتصـوير تعبيري،غايته أن يقرأ الناس الصورة، ويتأملوا الكتابة إن صح التعبير ويتعرفوا على رجل ظلمه زمانه ونقاده، أجل كان هنـاك جهـد طيـب في رسـالة الـدكتوراه التـي وضعها الصديق الـدكتور يوسـف نوفـل حـول أدبـه، وبعـض الكتابـات القليلـة الأخرى، ولكن أدب الرجل يستحق المزيد من القراءة والفحص واكتشـاف المزيـد من الدلالات والوسائل الفنية التي انفـرد بهـا، وجعلتـه وفقـا لـبعض الأقـوال:" الصورة المنقحة للمنفلوطي الكاتب الرائد المعروف.

***

هذه قصتي بإيجاز مع كاتب أحببته، ويجد القارئ بعضا مـن ظلالهـا في الصـفحات التالية، وأرجو أن أكون قد وفقت في التعبير عنها..وبالله التوفيق أولا وآخرا.

المجد، في: ربيع الآخر 1441هـ ديسمبر 2019 م حلمي محمد القاعود

رحلة حب مع
محمد عبد الحليم عبدالله

الوفاء مرحلة من مراحل العلاقات الانسانية تنبع من الحب . وحلمي محمد القاعود قدَّم كتابه هذا بدافع الوفاء لأديب تعلق به وتتلمذ عليه وتأثر به وفجع برحيله، فهو وفاء ابن لوالده، ومُريد لأستاذه، وجيل ناشئ لجيل أسبق عبَّد له الطريق وحفظ له الشعلة متوهجة عالية، فتسلمها منه محاولا أن يسهم بدوره في مواصلة الإبقاء على جذوتها وقبضته عليها: نار تحرق ونور يضيء.

ومن فصول الكتاب نعرف أن المؤلف الشاب تعلم الكثير من رائده الشيخ. تعلم أن هواية الأدب (وهي في بلدنا حتى اليوم مجرد هواية بالنسبة لأكثرية من يمارسونها لأنهم ينفقون عليها من أعصابهم وأوقات فراغهم وعلى حساب مصالحهم أكثر مما يعود عليهم في شكل عائد مادي أو حتى أدبي) أقول أنه تعلم أن هواية الأدب ليست- كما قد تبدو في أوهام المراهق متعة خالصة. بل هي أشبه بالعسل المر، إذ تختلط بها معاناة التجربة فالمخاض فالنجاح. إن الدرس الأول الذي يلقيه الأديب الرائد على تلميذه أن النجاح في مجتمعنا بدلا من أن يجعل صاحبه موضع تقدير و يضع الإمكانات أمامه لمواصلة تفوقه؛ يخلق له الحاسدين والأعداء والمنغصين والمطالبين بإغراق كل رأس تبرز فوق سطح الحياة الرتيبة .

وبالرغم من هذا كله فقد أمسك حلمي محمد القاعود قلمه وكتب القصة القصيرة كما كتب الدراسة الأدبية ، واجتاز طقوس المخاطر الأدبية راضيا بسرائها وضرائها.

وكتاب الغروب المستحيل يتوارى فيه جانب السيرة أو الترجمة ليفسح المجال للدراسة الأدبية، ومع ذلك فقد حرص المؤلف أن يذكر بعض البيانات عن محمد

عبد الحليم عبد الله إلا إنها بيانات قليلة لا سيما في الفصلين الأول والثاني حيث تحدث عن علاقته الشخصية به ، كيف بدأت وكيف نمت و كيف انتهت من جانب واحد بالموت. كما تجول في الفصل الثاني في قرية كفر بولين التي فيها نشأ مُحمد عبد الحليم عبد الله و عزبة عبد الله غطاس المجاورة محاولا أن يستخلص علاقة بين هذه الأماكن العزيزة على كاتبنا ومسرح الأحداث لبعض رواياته. كما حاول أن يربط بين بعض أعماله الأدبية وشخصه على نحو ما فعل عند تناوله رواية «بعد الغروب»، حيث أعلن أنه لا يخاله إلا مترجما لذاته في تلك الرواية برغم أنه حاول أن يتحقق من مؤلفها من هذا الظن فأجابه إجابة عائمة انتهى فيها إلى أن كل رواية أو موضوع يكتبه الفنان فيه شيء من نفسه وذاته وتاريخه وحياته. وهنا نلاحظ أن المؤلف يستخدم حروف الشك وأفعال الترجيح، وهذا أسلوب أفضل من أسلوب القطع والإطلاق، لكنه قد يشتط في ترجيحاته الى الدرجة التي ينتهي إليها قوله: لعل إيحاءه بانقطاع الحياة مع «أميرة» في روايته «بعد الغروب» كان إرهاصا بشكل ما أنه سيودع الدنيا مجروح القلب والوجدان، والتعليل الأصوب أن الذي خلق هذا الموقف من طبيعة أميل إلى الحزن وهي طبيعة تلازم صاحبها كل حياته.

ويمضي حلمي القاعود في رحلة حبه من خلال ما رأى أنه أبرز روايات مُحمد عبد الحليم عبد الله . « فالجنة العذراء"، هي مصرنا الحنون، و «للزمن بقيه»، هي نقطة تحول في التطور الروائي عنده، فقبلها كان بطله هو الإنسان المطلق في أي مكان، ولكن هزيمه 1967م دفعته إلى مرحله الإدانة الصريحة والقاطعة في روايته «للزمن بقيه»، ورواية «من أجل ولدي»، هي معالجة العلاقة الأم والولد، وعندما تناول رواية «شجرة اللبلاب»، تتبع الجذور النفسية لبطلها وأعلن أن هذه الجذور ثمرة حياة أسرة تعد صورة مصغرة من مجتمع يعاني ويئن بالدرجة الأولى، أي أنه حريص على الا يعزل الأسباب الفردية عن أسبابها الاجتماعية. ثم يعبر بكلمات موجزة على رواية «الباحث عن الحقيقة»، ومنها إلى روايته غير المنشورة «إبريسم»

ويعلل عدم نشرها بأنها أول عمل أدبي الفه، فبرغم ما يراه من مستواها الناضج إلا أن مُحمد عبد الحليم عبد الله أحجم عن نشرها رهبة من لقائه بقرائه في تلك السن المبكرة وهو تعليل يحتاج إلى مناقشة، وأول رد يتبادر إلى الذهن هو لماذا لم ينشرها مؤلفنا عندما زالت الرهبة ونشر عشرات الروايات فيها بعد. أما الخوف من أن تشف هذه الرواية عن عواطفه و نوازع وجدانه لأن كلمة الحب كانت آنئذ غير مقبولة على نطاق واسع، فتعليل مردود عليه أيضا بأنه نشر فيها بعد روايات شفت عن عواطفه، وإذا كانت قد أصبحت لديه الجرأة على أن يفعل ذلك أو أن المجتمع أصبح متقبلا لكلمة «الحُب» ، فلماذا لم يعد النظر في إحجامه القديم عن نشر باكورة أعماله؟

وهكذا يمضي حلمي القاعود في رحلته مع أدب محمد عبد الحليم عبد الله،وقد نختلف معه في منهجه، أو في بعض النتائج التي استخلصها وانتهى إليها، ولكن هذا كله لا يقلل من قيمة المحاولة، لاسيما إذا تذكرنا أنها أولى محاولاته التي تُنشر ككتاب، وإن كانت له عشرات القصص القصيرة والدراسات التي رحبت بها مجلاتنا الأدبية.

وإنني لأرجو أن يواصل القاعود قراءاته وأن يستكمل أدواته النقدية إذا أراد أن يستمر على هذا الدرب، درب النقد الوعر في بيئتنا الأدبية أو ما يحتاج إليه من شجاعة، حيث المآخذ تصبح سببا للعداوة، والرضا اتهام بالنفاق، بل حتى الصمت يجد الناقد من يحاسبه عليه، وإلا فلينج بنفسه منه مقتصرا على كتابة القصة مدخرا طاقاته لإبداعها. وإن كانت النجاة غير مضمونة، فقد يخرج هنا أيضا مثخنا بالجراح كما حدث لأديبنا محمد عبد الحليم عبد الله.

لكن المتعة في النهايةوبالرغم من كل شيء .. هى متعة أن تكون،،

يوسف الشاروني

الغروب المستحيل

في الثاني والعشرين من يونيو 1970م ذهب الفتى إلى منزل يطل على النيل الساكن، ويمتد تحته جسر مرفوع فوق النيل، اصطلح الناس على تسميته «كوبرى الملك الصالح»، ويُشكل هذا الجسر امتدادا لشارع عريض هادئ يحمل اسم «الروضة» تشبها بروضة الجنة، أو الروضة المحمدية الشريفة في « يثرب» المقدسة .

لم يكن هنالك ما يوحي بالتناقض أو التنافر، فالرجل الذي هناك هادئ وطيب ووديع ، وكذلك الشارع والحي بل والمنزل الذي يسكن فيه يتسم بالوقار والحركة الصامتة .. ان الجو السائد يوحي للإنسان بالتحليق في عالم السكينة ،واستشراف العالم المحيط وتركيبه المهول بالحس والمشاعر والرؤى !

في مساء هذا اليوم صعد الفتى الريفي منزلا هادئا رقمه 4 بالشارع المذكور،وأخذ يصعد في مشقة درجات سلم طويل، فلا عهد له باستخدام المصاعد الكهربية، حتى وصل إلى الطبقة الخامسة مهدودا مكدودا، يشهق بالإرهاق، ويتطامن بالإعياء، وانفرج له الباب عن وجه أبيض، كل جزيء فيه يتحرك ويختلج ويهتف مبتسما ومرحبا وحانيا.. كان لصاحب هذا الوجه المشرق رأس أصلع، تخلو مقدمته من الشعر تماما ثم تبدأ كثافته في ازدياد نسبي عندما يتحرك البصر إلى الخلف ثم يهبط نحو الفودين والمؤخرة، وفي هذه الكثافة النسبية، تضيء الدنيا رغم خيوط سوداء بدأت عملية انسحاب كامل وشامل من عالم النور والضياء!

حب الأبوة

وكان الرجل والفتي يتشابهان في أشياء عديدة، وان كان تفاوت العمر والتجربة يفصل بينهما زمنيا بمسافة شاسعة و كبيرة. كان الفتى يُحبه حُبا جَما، وكان الرجل يُبادله الحب. وهو حب الأبوة حين تعطي وتحنو وتحتضن، وحين يصب هذا العطاء في معين البنين تتلاشى المسافات و تختفي الحدود وتذوب الفوارق.. لأن

المنفعة لا محل لها هنا، من ذلك أن فتانا الريفي غضب من رجلنا الهادئ الوديع، وكتب إليه خطابا فيه أسى ومرارة، لأن الأخير كان قد استقبله ذات مرة وهو مشغول في عمله الرسمي.

فلم يعطه الاهتمام الكافي أو هكذا تصور الفتى وبعد أن جرحته الرسالة كتب إلى فتاه:

ولدنا الأستاذ ....

تحياتي القلبية.. وإن كنتَ قد أثرت آلامي ووساوسي حين توهمت أنني لم أقابلك طيبا. كيف؟! إن لم تكن من أسرة القلم فأنت ابن من أبنائي من البحيرة. ولستُ أبريء نفسي، ولكن كل ما أعتذر به هو أن احساسك الشخصي مُقدر في نظري وله الكلمة الأولى لكن الأخيرة لاعتذاري .

قرأت مقالك الرائع وأشكرك. وما لا ينسى أنني لم أكتب إليك لأن عنوانك بالـ....... فُقد مني. كما أنني ظللت مريضا طوال عام 69.

والآن لا بأس بي، وأرجو أن تمحو من خاطرك تماما أيها الأديب وهمك نحوي.

وكل ما أرجوه لك صحة وتوفيقا وردا على هذه الرسالة وأجمل الامنيات، (1).

القاهرة في 29 يناير 1970

قُلتُ أن الرجل والفتى كانا يتشابهان في أشياء عديدة، ونذكر منها. أن كلا منهما ريفي حتى النخاع، ويحمل خصائص الأرض العذراء بمعطياتها الحنون،ويعيشان بقلب يخفق مع دورة الزمان بالأشجان الآفلة والهموم المتكاثفة.. ثم هنالك عطاء رباني يشتركان في مواصفاته، وإن

كانا يحمدان الله على هذا العطاء تيمنا بقول شاعر أيوبي معاصر :

- لك الحمد مهما استطال البلاء.. ومهما استبَّد الألم
- لك الحمدُ إن الرزايا عطاء.. وإن المصيباتِ بعضُ الكرم

- ألم تُعطني أنت هذا الظلام.. وأعطيتني أنت هذا السَّحر؟
- فهل تشكرُ الأرضُ قَطرَ المطر.. وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمام؟ (2) ؟

كان رجلنا الوديع رقيق الحاشية، خفيف الحركة، شديد الاحساس يقظ الحواس، يتأثر بما يسمع، وينفعل بما يرى، ويخفق قلبه بما يستشعر، ومن ثم كان وجوده في هذه الدنيا نوعا من الترياق لأمراض مستعصية في بعض الأوساط الفكرية، مع أنه عانى مرضا مزمنا ولم يشفه أحد إلا مولاه سبحانه وتعالى!

مناجاة

جلس الفتى القادم من الأرياف في رحاب الرجل، وأخذا يتناجيان في أمور شتى تصب كلها في إناء الفكر الذي لا يمتلئ ولا ينضب. ويمكن القول إن هذه المناجاة قد حفلت بكثير من الرؤى والأماني والأشجان.

كانت هنالك قصة زمن، ورواية حياة وملحمة وجود، بدأت من «كفر بولين»، إلى «كفر بولين»، رغم سياحة الرجل في أعماق الحياة والزمن والوجود، وتوغله داخل السراديب الضيقة.. وغير النهائية..

وكانت هنالك قضية شيء اسمه: الحُب الإنساني بمعناه الواسع والشامل.. والفضفاض، وهي قضية بدأت هنالك وانتهت أيضا، ومازال عطاؤها يفوح بالشذي من خلال الكتب والصحائف التي خلفها وذهب..

وكانت هناك ملحمة البطولة التي شقت طريقها بالفأس وسط الصخور، وقام بناؤها بحثا عن الحقيقة الضائعة، وانتهت بقصيدة قوية وكامنة ولم تذهب إلا يوم ودع صاحبها الحياة..

***

بعد لحظات من بداية اللقاء نادي رجلنا الوديع صبيا مشرق المحيا، تبدو عليه علائم الطيبة الموروثة والسكون الموهوب، وتقدم الصبي والدنيا في عيني والده تضحك في زهو وحنو بالغين..

- لقد تزوجت بعد الأربعين . وقد أعطاني الله «هشاما»، مع أختين له، يتوسطهما سنا.
- تزوجت في الأربعين؟
- نعم.. ولذلك قصة ربما أكون قد حكيتها بطريقة ما. وليتني أرويها بتفاصيلها الصريحة والواضحة. ولكن من يدري؟؟!

بيد أنه مضى دون أن يقول شيئا، أو يروي حياته صريحة وواضحة بكل لمساتها و رتوشها على صفحة كتاب يحمل تذكارات الزمن الماضي والعمر الضائع. وأحس الفتى في أيامنا هذه كأنه يقول له إنك أنت المنوط بهذا الواجب وقد أصبحت في رحاب الله. فاكتب سيرتي للأيام القادمة والزمان الآتي وقل لهم: إني فلان .. ولكن ماذا يملك الفتى؟ والدنيا تلتقمه في جوفها ، ولا تريد أن تنبذه بالعراء وهو مقيم؟ ولا تود أن تنبت عليه شجرة من يقطين؟ انه لامحالة عاجز عن أداء هذه المهمة كما ينبغي أو يتخيل لأسباب وأسباب. • .فلتمض الأيام كما هي، والأمر لله من قبل ومن بعد..

عطاء

وكان رجلنا الوديع شيئا يختلف عن كثير من أقرانه في زمانه، فقد أعطى نفسه للآخرين دون مقابل. أعطى نفسه لأمه وأبيه وصاحبته وبنيه و فصيلته التي تؤويه وكل الأحباب حوله أخذوا منه بعض نفسه و كل حياته.. حتى فتاتا نال شيئا وافرا من هذا العطاء غير المرئي .. انه – أي الفتى – يذكر كيف جلس يحكي لرجلنا عن سقمه وألمه وأيامه السود، ولكنه بعد أن أشبع الرجل حكيا، خرج الفتى وكأن الدنيا لم تلق إليه بأسباب العناء، وذلك بفضل الطبيعة السمحة لدى رجلنا العظيم. خرج الفتي راضيا وقد تسلل إليه شعاع من فيض الحب الذي كان يحمله الرجل ويعتمده أساسا لحياته وحياة أحبابه وكان يعده أس إنتاجه الفني وأساس إبداعه الأدبي :

فليحب الفنان أي شيء، بحكم أن الفنان آلة غريبة. نتاجها جميل يتطلب (مُحرّكها) نوعا من الزيت يخالف ما يعرفه الناس. لكن قبل ذلك كله، أو بعد ذلك كله يجب أن يلون حبه باللون الإنساني وذلك أعظم قيمة وأطول خلودا. والإنسانية هي إحساس الفنان الدائم بأن ما يسبب له هو شخصيا قولة «آه» يسببها لكل إنسان على سطح البسيطة فهو حين يبني أعماله الفنية ذاكرا ذلك فإنه لا يستطيع إلا أن يكون «إنسانيا» حتى مع الذين يكرهونه فردا أو مجموعا ينبغي أن يذكر الفنان أنه إذا كره الذين يكرهونه فإنه سيعجز عن إرشادهم، وإذا كنا نعجز أحيانا عن هداية الذين نحبهم فكيف نستطيع أن نهدى الذين نكرههم؟ ..

ذلك المحال .

والفنان الذي لا يأخذ لونا إنسانيا لا تقوم له علاقة ضخمة بينه وبين الأشياء، وعلى قدر علاقه الفنان بالأشياء عظما وصغرا تكون معرفته لها. وعلى قدر معرفه الفنان لما حوله تكون نماذجه التي يخلقها .

وبذلك نستطيع أن نصوغ معادلة تقرب الفكرة للأذهان:

« كلما اتسع قلب الفنان فأحب أكبر عدد ممكن من الناس. كانت نماذجه أقرب إلى الإنسانية وأدخل في الخلود. والعكس صحيح» (2) .

تلك إذن فلسفته المحبة والإنسانية التي ابتدأ بها حياته إنسانا، والتي تبلورت خلال إبداعه فنانا، والتي خلعها الزمان عن جسده بعد غروبه المستحيل..!

يقين

ان هذه الفلسفة نتاج للفهم المتقدم، والذي تأصل لديه في صورة يقين إسلامي راسخ . ووصل بهذا اليقين الى قدرة فائقة على العطاء الإنساني النبيل التي أشرنا إليها سلفا ويمكن أن نفسح المجال لبعض أهله ليقدم لنا تصوره لهذا العطاء السخي: كل شيء عنده يؤلف حياة بحلوها ومرها، فيها التناقض والانسجام، فيها الرضا والجشع، فيها معارك قد تصل إلى حد الحرب وقد لا تتجاوز المداعبة. لكنه

كان يرى في هذا كله انسجاما- ربما لا يراهـا محسوسـا ولكنـه يستشـعره بوجدانـه وقلبه. كان يؤلف من متناقضات الحياة «لحنا منسجما»، حينما يصل اللحن الى أذنيـه يحس أنه مستمع وينسى أنه هـو الـذي كـان يعـزف! ربـما يرجـع هـذا الى فطرتـه السليمة، هذه الفطرة التي منحته قوة العطاء و نسيانه في نفس الوقت. حينما يـنجح ما نؤلفه هذه العبقرية يهتف قائلا: هم .. هم الذين فعلوا .. لست أنـا، و كأنـه يـرد عن نفسه تهمة العطاء والإنجاح! يفعل و يتعجب لأنه نسى ما فعله. وهنـا أسـجل وأقول: انه كان مدفوعا بفطرته الى حب الخير بوصـفه عبـادة وعمـلا. فـالخير هـو مفتاح الأعمال، وإذا كان التناقض ينتج خيرا فهو لغيره، كما حـدث مـع أسرة أخيـه الأوسط التي أنا واحد منها . ومفهوم العطاء عنـده : العطـاء دون مقابـل اطلاقـا، وعندما يعطى يفقد نفسه ليجدها أمام قوى كبرى هي الخير الممثـل في «الله» وقمـة العطاء في نظره هو أنه مختبئ لا يراه بشر ، وإلا ما كان عطاء.. (4).

إنها لصورة مشرقة عندما يعتمد الفنان في أداء رسـالته عـلى عقيـدة واضـحة الملامح والقسمات، إنسانية السمت والايقاع، تقدمية الجوهر والمظهر.. ولهـذا فـإن رجلنا الوديع كان يثابر مع أشجان الزمان وأحزانه، ويطـوى صـدره عـلى جرحـه، ويتألم ولا يكاد يبين:

(وأنا من الذين يؤلمهم أن يرى الناس آلامهم، على حين يرتاح الكثـيرون إن ثرثروا بمتاعبهم، ولا أحب شكوى الحال ولا شكوى المقـال)، (5)إلى هـذا الحـد كان يتحمل ولا يفضى، و يكظم ولا يشكو .. وتلـك شـيمة الرجـال الـذين يـأسي الناس الإنسانيون على فقدهم ويتألمون لغيابهم.

المسلوق

لقدأصيب بعِدّة عِلل جعلته يأكل مسلوقا وهـو في عـز الشـباب. فقـد كـان القولون، ملتهبا، و كان «روماتزم»، القلب يحد من حركته و يعطل نشـاطه، وكـان يشكو لي كيف يتغلـب عـلى هـذه الحـال بكـل الوسـائل وأغلاهـا، وكأنـه يـوحي

للمُستمع بأن هذه الأشياء بسيطة وسهلة مثل نزلة برد خفيفة أو ما شابهها.. بيد أن أطراف حديثه كانت تنساب في رنة أسي واضحة، وحسرة زاعقة دون أن يدري! لا لأنه مصاب فحسب، بل لأنه لا ينتج بالقدر المفروض، ولا يبدع بالأمل الكامن في أعماقه.

وفي اعتقادي أن آلامه الجسمانية لم تكن تؤرقه بالقدر الذي كانت تحدثه عِلل أخرى غير مرئية أو ملموسة، تمثلت في ذلك الصراع الدائر على وجه الحركة الأدبية في مصر بين الزيف القائم ومواريث الفساد المتراكمة، وبين أمل نابض وحلم ماثل يرجو حياة جديدة ومتدفقة، يزول منها الزيف وتُصفِّي تركة الفساد وتعود الأمور لنصابها.. ولكن هيهات! فمازالت شوكة العميان صلبة العود، حادة السن، وأيد عاتية تمسكها بلا قلب ولا ضمير !

وفي اعتقادي أيضا أن غروبه المستحيل جاء بعد أن أصابته شوكة أعمى أنجبه الزمن الأجرب، انغرست في القلب، وشرخت العقل. عندئذ تفجرت شرايين الرجل وتمزقت بالقهر والأسى لتضع حدا لعناء طويل وحزن مرير !

كان يعتقد أنه يحمل رسالة مقدسة، ولذا فإن عليه أن يوصلها الى كل الناس، في رضا صوفي لا يعترف بالعناء ولا يعرف التلوث. وكان يؤمن بأن الحقيقة في عالم الفكر يجب أن تظهر، ولن يظهرها إلا الأكْفَاء المخلصون المترهبون. وكان يرى أن عليه واجبا في تنشئة أجيال جديدة تصنع بفكرها ووعيها ملكوت الغد الآتي بما تراه وما تستقر عليه بالتجربة والمعاناة (وقد كان يقال له من بعض الأقربين وقد أشفقوا عليه من سهر الليالي يصحح تجارب الناشئة، و يقود خطاهم على الطريق ، ويقوم أفكارهم ويقدمها للناس :

استرح من هذا العناء فان ذلك سوف يكلفك نفسك. « و كأنهم يذكرون حديث حقوق البدن والأهل، والفن أيضا. ولكنه كان أبيّا وعطوفا وكريما. فلم

يتراضخ لمثل هذه الضـراعات، وظـل يواصـل المسـيرة في دأب وصـمت، وداخلـه فرحان بما يحققه من اكتشافات في عالم الناشئين والموهوبين.

كنوز

(لازلت أؤمن أن كثيرا من القلوب تدفن وفيها كنوز لو استخرجت لخلدت على الأزمان، وليست هذه الفكرة جديدة ولا عالية بحيث أدر كها وحدى، فإنها في نفس كل فنان، لكنهم يعتقدون ولا يعملون. نريد جماعات تفتش عـن المواهـب في قلوب الناشئين وترتاد مواطن أحلامهم كما يرتاد المعدنون مـواطن الـذهب، قومـا يخطبون لآلهة الفنون حسان العقول وأبكارها، يمسكون بيـد الناشـئ ويدفعونـه في طريق يتخيرونه بعد أن يصفوا له معالمه ثم يرقبونه حتى لا تحيد به الطريق. وبـذلك تستطيع يا بني أن تزحم كل جيل بعدد من العباقرة. أما أن تترك الناشئة تتخبط كـما تتعثر الأرانب في مدارج الفيلة فذلك ما لا أرجو معه استقامة حال) (6) .

هكذا كانت نظرته الإنسانية المتفانية من أجل الغد وجيله، وذلك شيء ينـدر أن تراه بين (الأفيال التي تضرب بقوائمها الغليظة في غابة الأدباء) أو مـن يسـمون كذلك.

جفاء

ترى هل لقى إنصافا بعد نظر ته تلك وسـلوكه هـذا؟ لا .. فقـد لقـى جفـاء وقطيعة لا مبرر لهما.. من الذين أخذهم على الطريق وعرفهم معالمـه، ومـن الـذين يمسكون بموازين النقد والتقويم! وقد حـدثني في ذلـك الشـأن، ومعظـم الأدبـاء يعرفون ما جرى له. ولكن ما الحيلة إذا كان الوفاء والعدل يضيعان في زمن الزيـف وعلى أرض النفاق؟

ومع هذه الهزيمة الضمنية، فقد كان يمحو آثارها ببسمته الضاحكة (7) وملامحه الشفافة، ونظرته الرحبة، وخياله البعيد، وإنسانيته السمحة. وقبل ذلك وبعده يقينه الإسلامي: محركه وحافزه في سلوكه وإبداعه.

خرج الفتى الفلاح من هذا اللقاء ولم يكن يحسبه لقاء أخيرا، ولم يكن يعرف أن الغروب سوف يحدث مباشرة قبل أن ينتصف النهار! لقد كان الرجل في أوج نشاطه وقمة عطائه، وذروة إنتاجه المتدفق في قلب الآلام، ولكن أنى له أن يستمر في التدفق والعطاء والنشاط وقد غربت شمس الربيع مبكرة!

نذير

جاء نذير من الفسطاط الى ثغر الإسكندرية ليعلن فتانا بغروب الرجل الوديع، وصعود روحه الى الملأ الأعلى في الثلاثين من يونيو 1970، بعد أسبوع واحد من آخر لقاء بينهما.

و كان ذلك الإعلان المروع صدمة زمان صكت أسماع فتانا وهو حبيس أحزانه الذاتية وأشجانه الخاصة . لقد استغلق فمه وعقله وقلبه عندما وصل صوت النعي إلى مسامعه وتاه في بحيرة من الأسى المكتوم .. لا هو قادر أن يبكي. ولا بمستطيع أن ينطق ولا بمصدق أن صاحبه قد مات ! فالغروب في هذا الأوان ، كان- في ظنه- مستحيلا! لكنه الأجل أصدق نعي وأوثق نبأ. وليذهب الجسد محفوفا برعاية الله وتبقى روحه بيننا عطرا ذكيا وطاهرا يرفرف بالطيبة والصفاء واليقين :(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي)

***

الهوامش

(1) إحدى رسائله إليّ، تلقيتها وأنا أعيش آنئذ أعمق ما يكون الأسى والألم على المستوى الروحي والمستوى النفسي ، والجسدي أيضا!

(2) من أشعار «بدر شاكر السياب»، في قصيدته الطويلة المشهورة «سفر أيوب»، وقد نُشرت في ديوانه «منزل الأقنان».

(3) من مقال له في مجلة الرسالة الجديدة عدد 32، 1956م، ص 12 .

(4) من رسالة لابن شقيقه «زغلول» .

(5) روايته «بعد الغروب» ص 14،

(6) السابق، ص 114 .

(7) نود أن نذكر هنا أنه كان ميالا للمرح والدعابة، مع كراهيته للنكت كما بدا ذلك في روايته التي لم تتم والتي شجب فيها الاكتفاء بالنكت دون العمل الإيجابي.

و نورد هنا طرفة ذكرها لبعض جلسائه ذات يوم في مصيف عاليه بلبنان وقد كان الحضور مكونا من الأساتذة كامل مروة وعفيف الطيبي وهشام أبو ظهر ونصرت تو فيق خريتش. قال: أخلى سيرك متجول وعقد مزادا لبيع ممتلكاته، فوقف رجل يزايد على نمر مفترس حتى رسا عليه فتقدم منه صاحب السيرك قائلا

- رأيتك مصرا على الظفر بالنمر، فهل أنت صاحب سيرك؟
- كلا لقد اشتريته لنفسي.
- وماذا بالله ستفعل بهذا النمر المفترس؟

قال الرجل :

- المسألة يا سيدي أن زوجتي قد توفيت منذ حين وإنني قد بدأت أشعر بوحشة شديدة!! .

ويجب أن أذكر أن معظم هؤلاء الحضور قد ذهبوا إلى رحمة الله، ولم يبق(حين إعداد هذا الكتاب) سوى الأستاذ نصرت توفيق خريتش الذي زودني بهذه الطرفـة أطال الله عمره .

أشجار السنط

"قريبة دمشق

بعيدة دمشق

من يوقف النزيف في ذاكرة المحكوم بالإعدام قبل الشنق

ويرتدي عباءة الولي والشهيد؟

ويصطلي مثلي بنار الشوق؟

أيتها المدينة الصبيه

أيتها المدينة النبيه

أكُتب الفراق والموت علينا؟ كتب الترحال

في هذه الأرض التي لا ماء بها، لا عشب، لا نار

غير لحوم الخيل والنساء

وجثث الأفكار(1)

بهذا المقطع يعبر الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي من خلال الرمز عن العلاقة الجدلية بين الحب والنفي، والحنين والغربة، والشوق واللهفة. والشبع والجوع، والري والظمأ.. وكأن بلدة الكاتب لم تكن سوى «دمشق»، كفر بولين هي دمشق.. أحبها محمد عبد الحليم عبد الله .. ذاب في هواها، وأعطاها من عقله ووجدانه كثيرا من ذوب شعوره وفيض فؤاده، ولم يبخل عليها بقليل أو كثير، وانما سافر عنها وقلبه فيها لم يرحل ولم يتغرب. بل ظل ساكنا ومقيما، وكأني به يفارقها صبيا مميزا يطلب الدرس في دمنهور ثم يظل مفارقا بعد انتهاء در سه فها ويستمر الدرس مع الفُرقة وهو طالب في دار العلوم بالقاهرة.. ومع أنه حرم من الحياة في

كفر بولين بعد الطفولة مباشرة إلا أنها ظلت في ذاكرته وشعوره أو بمعنى أدق ما يسميه علماء النفس «بؤرة الشعور»، فصارت مثل دمشق قريبة وبعيدة في آن واحد.

قرية

لقد تحدث عنها في معظم قصصه إن لم يكن كلها ، وان لم يذكرها بالاسم صراحة في بعض الأحيان ، فنستطيع أن نراها في عزبه خورشيد أو قرية « النجومي» أو غيرهما مما كان يسميه أحيانا بالريف أو بالقرية من قرى مصر ، وغالبا ما تجد هذه القرية في الدلتا أو الوجه البحري على العموم .

وسوف نجد في ذكر القرية دائما شيئا ما يقنعنا بأن محمد عبد الحليم عبد الله يرحل .. وقريته معلقة على كتفيه، لا يستطيع أن يتركها تهبط ليخف ثقلها عنه، فهي ثقيلة بما تحمله من مواريث التخلف والأسى ، ولا هو براض عنها لأنها قدره ومصيره وعمره الذي نذر نفسه له، وراح يهتف من أجلها في كلماته وأقاصيصه وحكاياه .. ألم تكن أبدا جنته العذراء؟

رأى فيها ظلاما .. بل رآها متلفعة بالظلام أقصد ملاءة من الظلام حسب تعبيره هو (2) قوام هذا الظلام الكثيف الجهل والفقر والتخلف المهين، والظلم القائم على الاستبداد والجبروت ولعل الجنة العذراء خير قصصه التي عبرت بعمق عن هذه الدنيا العجيبة والغريبة والحزينة أيضا .

كان محمد عبد الحليم عبد الله في أثناء دراسته بدار العلوم يسكن منفردا أو مع الغير ولكنه دائما كان يسكن الغرف العلوية على السطح مثله في ذلك مثل أي طالب ريفي فقير يغالب الدنيا ووحشيتها الضارية وكأنه يذكرنا ببطل «الجريمة والعقاب » مع الفارق..

غرفة

وأهم ما كان يميزه في هذه المرحلة، أنه كان دائم التنقل من غرفة إلى أخرى في مدينة شرسة لا تعرف الشفقة ولا الرحمة، ومن هنا كان شعوره الدائم بالغربة عنها . وقد خلفت لديه تلك الغربة أثرا لم ينمح ، لأنه استشعرها وهو لما يزل فتى غض الإهاب ، ونستطيع أيضا أن تفسر حنينه الدائم الى مسقط رأسه حيث الدار الفسيحة، والفضاء الخالي، والأرض المزروعة بالخضرة والطيبة، والدنيا التي يشعّ منها الصفاء، مع عصر الجهل وزمن المرارة وأيام الفقر الذي تحياه القرية قهرا وإكراها، وسوف تراه في كثير من قصصه يروى عن الطلاب والموظفين الصغار الذين يسكنون الغرفة العليا على السطوح دائما في منازل القاهرة المتواضعة،وسوف نتعرف على خصائص هذه الغرفة بأثاثها البسيط، وزادها القليل، و كذا موضع مفتاحها الذي يكون في نافذتها أو كوتها بمعنى أدق، وسوف تتأكد بعدئذ أن من يسكن فيها لا يزيد عن فرد بالضرورة .. ولعلنا نحفظ في ذاكرتنا صورة لغرفة «مختار» في روايته "شمس الخريف". وغرفة البطل في كل من «شجرة اللبلاب» و «بعد الغروب»، وفي غير ذلك من أقاصيصه ورواياته التي لا تخلو من وصف لهذه الغرفة العليا، وهو ما يدفعنا إلى الإحساس بشوق الكاتب الى الطمأنينة والأمن في ظل أمه الحنون، وداخل فناء دارهم في ريفنا الجميل والحزين .. إنها «كفر بولين»، وكفى ..

ويُروّعنا في «كفر بولين»، أنا نمضي على حافة دائرتها فلا تجد سوى تلك الشجيرة الرمادية ذات الغصون الرفيعة نسبيا والأوراق المدببة والظل الشحيح، والشوك الذي يغمر كل أغصانها ويسميه الناس هنالك بالسّلّ (3) .. هذه الشجيرة تغطى حافة الدائرة في «كفر بولين»، هذه القرية الوادعة في صمت مهيب..

لن تجد تفسيرا واضحا لهذه الظاهرة، وقد نسأل أنفسنا: لماذا يصر أهل هذه القرية على زراعة السنط دون سواه من الأشجار بهذا الإلحاح وبهذه الكثرة؟ لن

نجد بالضرورة إجابة شافية على هذا السؤال وغيره من الأسئلة، لأن هنا شيئا ما في أعماقنا نحن المصـــريين يعشـش بـداخلنا ولا يفـرخ إلا بالفعـل والحركـة، دون أن نستطيع الإبانة بكلام أو الإيضاح بلغة، و هذا يعبر عن نفسه في صورة ظـاهرة مـن الظواهر التي نقف أمامها حائرين. وقد يقول البعض هاكم إجابة في غاية البسـاطة ومع ذلك فهي صحيحة أيضا، وفحواها، أن السنط شجر مليء بالشـوك ومـن ثـم يستطع الفلاح أن يطمئن عليه فلا أحد يمكنه قلعه أو قطعه كـما يحـدث لغـيره مـن أنواع الشجر الأخرى المفيدة مثل : التوت والجميز والكافور ۰۰۰ الـخ. بيـد أننـا رغم هذا كله لا نملك الا القول بأن الأمر قد يعني هذه الإجابة البسيطة، أو غيرها من الإجابات، وإنما يمثل في جوهره تعبيرا مبهما عن شيء كامن في الأعماق.

سكون

تقع «كفر بولين»، بعد كوم حمادة بحيرة (4) بحـوالي خمسـة أميـال ويـذهب اليها المرء على أحد الطرق الترابية المتفرعة من «كوم حمادة» .. وهناك تجـدها وادعـة بين شيئين يمثلان الموت والحياة .. فعلى ناحية منها تخشع مقابر المـوتى عـلى بسـطة مرتفعة عن مستوى القرية بأربعة أمتار تقريبا، ويظلها كما هي العادة سـكون مفعـم بالرهبة والمهابة.. و ينحدر بجانبها بركة ماء واسعة لا أدري مصدرها جيـدا، وانـما الذي أعرفه انها تمتد من حافة المقابر السفلى حتى حافة الدار التي ولد وعـاش فيهـا محمد عبد الحليم عبد الله بعضا من الزمن في دورته الطويلة ، وكأنها أي هذه البركـة تصل بين موته وحياته بسبب عظيم.. فضريحه الآن على حافتها اليمنـى،وداره عـلى حافتها اليسري .. وذلك شيء غريب حقا؟.

يحد كفر بولين من الناحية الأخرى ترعة واسـعة وعريضـة أحـد الرياحـات الكبرى في الدلتا (5) وعليها تعتمد الزراعة في «كفـر بـولين» وغيرهـا مـن القـرى المجاورة.. وعلى حافة هذه الترعة يمتـد شريـط للسـكة الحديـد، يمثـل الزمـان في مسيره كما تبدى في روايات كاتبنا (6)،وكفر بولين لا تختلف عن أي قرية من قـرى

مصر السفلى (الدلتا) وان كانت أقرب إلى الصحراء منها الى الأرض التي تطل على النيل مباشرة.. وذلك لا يؤثر كثيرا في كونها قرية تمثل نموذجا للريف المصري في أواسط القرن العشرين.

هي قرية تقف أمام الزمان بعصفاته و هزاته فتتغير معه بالقدر الذي يؤثر فيها وتتأثر به بيوتها في معظمها كبيوت الريف العادية، قصيرة القامة، ترتدي غطاء طينيا حييا خجولا، ملأى بالأزقة والحواري المتعرجة وإن كان زحف الزمان وحضارته يبدوان واضحين في قسماتها الراهنة بالأبنية الحديثة في بعض أماكنها بفعل الثراء النسبي أو التطلع الطامح، ومن هذه المنازل منزل آل عبد الله، بيد أن طابعها يظل كما هو مرسوما بالسماحة. فعندما تدخل منزلا من هذه المنازل لا تجد فيه الضيق الخانق الذي تشعر به عندما تدخل منزلا حديثا في المدينة، وإنما هي حجرات فساح وبيوت رحبة تهش للقادمين وتبش لهم، وكأنها تحكي لهم خصائصها ومعالم أصحابها وذويها..

و ناس «كفر بولين»، بالطبيعة في معظمهم طيبون، وأغلبهم يحمل من صفات عم «محمد الجندي» الكثير(6)، وهم يتميزون بالخلق الريفي الذي يتساءل ويكد ويشقى، وإن كان الحصاد قليلا أو كثيرا فذلك لا يهم وسوف يجد القارئ في قصص الكاتب صورا وأنماطا شتى لهذا الخلق الريفي بمزاياه ومساوئه على حد سواء، كما يتجلى في رواياته وأقاصيصه: الجنة العذراء – سكون العاصفة – للزمن بقية – النافذة الغربية.

وهنالك أيضا أطلال الزمن القديم بمزاياه ومساوئه، و كأنها تنعى موت « حمودة » في «الجنة العذراء» أو النجومي الكبير وابنه الشرير في «للزمن بقية».

ومع كل ذلك تتميز هذه البلدة المحفوفة بأشجار السنط بأن لها مسجدين متوسطين يقع كل منهما على أحد أطرافها.. طرف الخلود، وطرف البقاء.. ويعمر

كلا منهما بعض من أحباب الله شيوخا وشبابا وأطفالا، ويستجيبون لداعي الله كلما هتف الداعي. بالفطرة الطيبة والسمت الوقور. والإخلاص غير المحدود.

عزبة

ولا يمكننا بحال أن نذكر «كفر بولين» دون أن نذكر العزبة المجاورة لها،وتسمى : «عزبة عبد الله غطاس»- وقد شهدت أياما ثراء وغنية بالإبداع الفني الذي خلفه كاتبنا الراحل محمد عبد الحليم عبد الله، خاصة روايته الأثيرة «بعد الغروب»؛ فقد ذكرها بإعزاز، ورسمها بإتقان بارع. ولعله شهد فيها حبا، جارفا ضاع منه في عالم لا يؤمن بالمساواة بين القلوب النقية والصافية.. ونحن لا نملك يقينا أن نؤكد ذلك أو تنفيه، اذ تنم طريقة الحب في «بعد الغروب» عن حب مفقود و ضائع لا محالة.

إن هذه العزبة الفريدة في موقعها بين الحقول والوابور الكبير الذي يبرز كعلامة مميزة لها، وهو موطن الكثير من الحوادث التي وردت في قصص كاتبنا. وتناولها بعمق و يقين.

وقد قيل لي أنه كان يُفضّل بالضرورة كلما عاد إلى «كفر بولين» أن يجلس هنالك ويمضى كثيرا من وقته بين المطالعة والكتابة.. فالجو فيها شاعري للغاية، ساعد على التحليق في سماء الخيال والحلم، ويفتح أبواب الخلق والإبداع على مصاريعها.. وأي رهافة وإحساس خلقا لدى محمد عبد الحليم عبد الله؟

في الطريق إلى هذه العزبة عزبة عبد الله غطاس بعض المصارف والقنوات تغطيها أشجار السنط، ولكن بعض الدور المنعزلة في أطراف « كفر بولين » تؤنس الساري في مسيرته إلى العزبة وتطمئنه بأنه سوف يجد الحياة ها هنا تضرب بجذورها في أعماق الأرض في قلب العزلة والوحدة وأنه لا خوف، ويدعم تلك المنطقة فصائل من الكلاب اليقظة قوية الشمّ وقد سمعت أن هذا الطريق، وتحت شجرة من أشجار السنط قد شهد مولد أول رواية لكاتبنا (7) وهي رواية «أبريسم» أو «غرام حائر» وقد كتبها في مطلع صباه، وعبّر فيها عن أشواقه وتطلعاته تجاه زمنه

وواقعه بأسلوبه الخاص (8). و كان يشاركه الجلوس تحت شجرة السنط هذه واحد من أقربائه الذين كان يُحبهم حُبا جَما (9) و كان يومها طالبا في دار العلوم لما يزل، فأنعم بأشجار السنط تنبت ثمرا نادرا لا وجود له في أي «شجر غيره من الأشجار»..

أمّ

ولم تكن «كفر بولين»، هذا الهيكل الكبير الذي تحده أشياء مختلفة، وتكونه عدة بيوت ومساكن .. لا .. فإنها كانت تمثل للكاتب رحمه الله شيئا آخر، ظل يهتف به حتى آخر لحظة في عمره .. لقد كانت تضم أحبابه وأصفياءه .. ومن يكون حبيا وصفيا غير أمه الحنون التي أعزها إعزازا كبيرا، وكذلك أبوه الذي ترك بموته جرحا غائرا في أعماقه لم ينج منه كما حدثني إلا بعد كتابة روايته «الباحث عن الحقيقة»، ثم بقية أحبابه وأصفيائه ومنهم إخوته وأبناء إخوته وأقربائه الآخرين .. كلهم كانوا يمثلون في ضميره ووجدانه عمره الذي قضاه غريبا، وكان يحن له بإحساس طفل ينتظر عودة أمه أو عودته اليها لتضمه إلى صدرها وتسقيه من رحيق الحياة حياة ..

إن «كفر بولين» بملامحها المادية والمعنوية، كانت هي الجرح والدواء الذي سافر به محمد عبد الحليم عبد الله صبيا مميزا وحمله على كتفيه شابا فتيا، ورجع إليه شيخا في شرخ الشباب رجوعا أبديا، ينتظر لقاء ربه يوم البعث العظيم، لعله يجد في أحضانها بعد الفراق الأبدي السكينة المفقودة والرجاء المقطوع.. وأي سكينة.. وأي رجاء!

في ظني أن وجدانه الذي نعيش معه في دنيانا سوف يردد من جديد، ودائما!

قريبة دمشق

بعيدة دمشق

من يوقف النزيف في ذاكرة المحكوم عليه بالإعدام قبل الشنق؟

***

الهوامش:

(1) من ديوان "قصائد حب على بوابات العالم السبع"، بغداد، 1972م

(2) راجع قصة لم تتم .

(3) لعل في هذه التسمية شبها كبيرا مع المرض المسمى بهذا الاسم مع فارق النطق فالأول بكسر السين والثاني بضمها .

(4) كوم حمادة المركز الإداري لكفر بولين وهو أحد مراكز محافظة البحيرة .

(5) يسمى الرياح (البحيري).

(6) عم محمد الجندي واحد من شخصيات رواية « للزمن بقية» .

(7) راجع ما كتبناه عن هذه الرواية في موضع آخر من هذا الكتاب.

(8) السابق أيضا .

(9) هو الأستاذ محمد رشاد عبد المحسن عبد الله ابن عمه والذي يشغل الآن (عند إعداد الكتاب) منصب مدير عام البحوث الزراعية بوزارة الزراعة.

حيـــاة

«.. و كنتُ راكبا حمارا هزيلا أنف الزمان من منظره فلم يكتسحه مع ما اكتسح من ثروة أبي. لا يفتر عن الزحير وهو سائر .. يراسل أنينه وقع حوافره على التراب فتتألف منهما نغمات حزينة.. واذا تحركت على برذعته تململ ظهره لما به من جروح لذلك كنت جامدا في ركوبي كأنني تمثال، وملقيا بما بقي من خاطري لأنبهه إلى عثرات هذا الطريق الزراعي الضيق.. »(1)

هكذا بدأت حياة من ورث الخراب قاسية وجافة تنتابها الأعاصير و تقصف بها الرياح في شتى الاتجاهات فلا حول ولا طول، ولا قوة إلا بالله العظيم. وفي هذه الحال فإن المعادن تكشف عن أصالتها، و تفصح عن هويتها . فتذهب المزيفة إلى بعيد حيث الضياع والتيه والخرائب، أما المعادن الثمينة فتبقى محتفظة بلمعانها وبريقها وتوهجها وتظل ثابتة الوزن متماسكة العناصر .

فقراء

ولست أدري تماما على أي وجه بدأت حياة محمد عبد الحليم عبد الله.. أبدأت من ذلك الميراث الخرب حقا، أو إنها بدأت كبداية الملايين في هذا البلد؟ اني أميل إلى القول بدايته الطبيعية مثلنا ومثل ملايين الفقراء والجياع والحفاة على أرض مصر العريضة.. ولا بأس أن نبدأ هكذا، لأنه قدرنا نحمله أني توجهنا ونحمد الله عليه، ولكننا نستمد أيضا من الله العون والسداد في رحلة العذاب والمعاناة والضني!

حانية هي القرية المصرية على بنيها، وطيبة هي القرية المصرية إزاء مشاهد الفقر والبؤس والهوان التي تراها كل لحظة تمر بها •• أليست قريتنا مغطاة بملاءة من السواد كما هتف بذلك محمد عبد الحليم عبد الله في آخر إنتاجه؟ (2) نعم كانت

مغطاة بحالك السواد. بيد أنه كان يجد في أحشائها روحا طيبة وحضنا دافئا يلجأ إليه كلما ألهبته سياط الحياة وهو طالب في البندر دمنهور ، ثم في مصر القاهرة التي لم يكن يستقر فيها بحال من الأحوال..

لقد خرج محمد عبد الحليم عبد الله إلى المدينة يطلب فيها العلم والنور ولكنها لم تعط له شيئا بسهولة ويسر لأنه فقير، و بلا مأوى مستقر وثابت، وبلا أهل في قلب المدينة الجامدة. فاذا وجد الرغيف أضناه البحث عن سكن. واذا وجد السكن قهرته برودة الحياة في مكان بلا عواطف ولا شفقة. أين أمه؟ وأين أبوه؟ وأين المعارف والخلان وبقية الأهل؟ إنهم بعيدون جدا وفي قلب السواد مازالوا. لقد كانت ظروفه القاسية سببا من الأسباب التي دفعته، ودفعت « عبد العزيز، هاوي الأدب – في روايته «بعد الغروب» ، أن يقترف ذنبا عظيما لم ينسه، ولن ينساه ما عاش حيا:

«ولا أنسى ذلك الصباح خرجت فيه من بيت صديقي بعد أن ذهب هو إلى عمله وأنا أحس وخزا من ضميري كالذي يحسه الشرقاء حين يدفعون إلى جريمة.. كنت سائرا إلى احدى المكتبات فوقفت أمام صاحبها وحللت الحزمة دون أن أرفع إليه طرفا ، ثم ذكرت في هذه اللحظة أنه لا يزال اسمي مكتوبا على زوايا الصفحات الأولى التي تحمل عنوان الكتاب فجعلت أمزق بسرعة أطرافها لأ حذف اسمي، ويدي مرتجفة و قلبي كسير .. آه .. ما أشق هذا على نفس الأديب!! . يُخيّل إليّ أنني كنت الساعة في حقارة من ينبش القبر عن كفن ميت» (3) .

صديق

ولعل القارئ يقول إنك ادعيت قبل قليل إنه كان بلا أصدقاء، أو فهمنا من مضمون كلامك أنه عاش وحيدا في قلب المدينة المتحجرة. ولا أحسبني إلا قائلا له.. «شف» يا عزيزي القارئ .. إن الصديق الذي يتحدث عنه صاحبنا ما هو إلا مِن نفس النوع وله خصائص مشابهة فهو فقير معدم وبائس أيضا. فأي فرق؟ وأنى

لنا أن نزعم أن أيا منهما يعوض الآخر حنان الأهل وعطاء الصداقة الطبيعية إنها صداقة الصدف وقسوة الزمان؟

ولا أخال محمد عبد الحليم عبد الله إلا مُتر جما لذاته في روايته «بعد الغروب»، مع أني سألته في ذلك الأمر، وأجابني إجابة عائمة اكتفى فيها بأن كل رواية أو موضوع يكتبه الفنان فيه شيء من نفسه وذاته وتاريخه وحياته. إلا أن استقراء الحوادث وتعدد الملابسات وضعا فى يقيني أنه رحمه الله كان يترجم في هذه الرواية عن محنة العذاب التي شهدها والتي ذاق فيها القسوة بكل أبعادها ومقارنة بسطة بين الحكايتين: الحكاية الشخصية له والحكاية التي وردت في بعد الغروب نجد أن الفارق هو لمسات الفن وضرورات الإبداع فحسب.. وما بعد ذلك فهو التطابق والحقيقة عينها.

بيد أنه لا يهمنا من ذلك سوى النتائج التي تمخضت عنها حياة العذاب والمعاناة لمحمد عبد الحليم عبد الله أو عبد العزيز في الرواية.. ولا بأس أن تتبع مسيرة عبد العزيز ثم نرى إلى أين تقف؟

أميرة

وكما بدأ في أول هذا الموضوع فإننا نجد عبد العزيز نتاجا أو ضحية في عصر الخراب العائلي الذي تمثل في ضياع الأرض، ووقوف الأسرة كلها على «الحديدة»، كما يقول المصريون تعبيرا عن حالة الفقر المدقع والإفلاس المادي التام، وينتقل عبد العزيز وسط هذه الظروف إلى المدينة القاهرة، أو مصر كما يسميها الناس فيتخرج مهندسا زراعيا، ثم يكدّ ويشقى ويذوق الأمرين في سبيل الحصول على وظيفة تقيه شر الذل والمسألة، ولكن الحيل تعييه، فالوساطة هي الفيصل الحاسم في أمر العثور على الوظيفة المرتجاة ، ولكن صاحبنا يدوخ بين ذوى الجاه ويتذلل على أبوابهم أملا في أن يتحقق الرجاء! وبعد طول عناء وممارسة عمل متواضع في معمل ألبان، ينتقل إلى العمل في مزرعة ثرى يعشق الأدب ويهواه. ويعيش عبد العزيز حياة أكثر رخاء

من ذي قبل بين الفلاحين بالمزرعة ويخفق قلبه وينبض بالحب «لأميرة » ابنة صاحب المزرعة، وتتكشف الأحداث عندما يثبت «عبد العزيز»، موهبة ومقدرة فائقة في إدارة المزرعة والإشراف عليها، ويصطدم بالحب الذي يُكلّفه أرقا وعناء. ويتدخل القدر لينهي حياة صاحب المزرعة، وتتزوج «أميرة» ، من ابن عمها «سامي» الذي لا يُجيد سوى التعرف على عيون الممثلات وتمييزها! و يدفع «عبد العزيز» الثمن، بأن يترك المزرعة جريح القلب ويواصل حياته في زراعة أرض جديدة، بيد أنه يترقى في ميدان الأدب حتى يحصل على قدر من الشهرة لا بأس به. ويحرر بابا دائما في إحدى المجلات، وعن طريقه يلتقي بأميرة بعد الغروب: غروب الشباب و تحكي له سر المأساة التي عاشها و تعيشها هي امتثالا لوصية من والدها بأن تتزوج «سامي» لظروف عائلية محضة. ويتركنا الكاتب بعدئذ لنعيش معه حياة الغروب بما فيها من ظلال خافته وبقايا ضوء يتراجع في حزن أليم، ليبتلعه أفق واسع عريض، ثم يخيم الصمت الأبدي الرهيب!

تلك هي القصة في سطور مركزة للغاية تحكي حياة عبد العزيز، الريفي المكافح الجريح. أو حياة محمد عبد الحليم عبد الله، ذلك الفلاح الصابر المثابر.. ونحن بالضرورة لم نستطع أن نعطي كل عناصر الحكاية في السطور السابقة بيد أن ما يهمنا هنا هو قصة تلك النفس التي كان غروبها مستحيلا آخر يوم من شهر يونيو سنة 1970م ! فإن هذه النفس الإنسانية حفلت بالكثير من المعاناة لواقع الحياة، وأشرقت أيضا بكثير من العطاء السخي المستقبل للحياة .

يقول صاحب هذه النفس عنها : « حتى الآن، وانا مستمر في محاولة أن أعرف نفسي.. والذي يريد أن يعرف نفسه كمن يلاعب نفسه الشطرنج. فلا يرضي غالبا ولا يرضي مغلوبا.. من يغلب من في الاثنين؟

لذلك فأنا أحاول أن أقف طويلا عند عيوب نفسي، وربما أثار ذلك الأسى و لكن الأسى خير من الغرور .

ومثل كل الناس حكم الناس على يجعلني أقف عند عيوب نفسي أكثر مما يجعلني أتأمل فيها شيئا أعجب به.. ولكني أرى في كل نفس أخرى غيري مزية هامة لذلك فأنا أحب الناس، وأحاول أن أرى في عدوى ميزة، لأن من طبعي أن أنظر الى مزايا الناس ولو كانوا أعدائي.

وأهم شيء يستوقفني في الوجود بعد الإنسان هو الأشجار. منظر شجرة في مكان ما ولو كان غريبا يلقى في نفسي السكينة. وكل شيء عندي له رائحة. الرائحة مثل الملامح أعرف بها الزمان والمكان والحوادث فللحب رائحة وللحرب رائحة وللسلام رائحة وللمسكن والفندق.. وقلعة الكبش والزمالك كلها روائح.

يهمني جدا أن أعطى وأكره أن لا أخذ حتى ولا أشد ما أحتاج إليه. وأعتقد أن كثرة الأخذ تحول صاحبها أخيرا الى حارس شرس.. يدافع عن ممتلكاته بقانون مرعب.

وأعتقد أن الفن والأدب منجم من مناجم الماس عمقه عظيم، وأعظم ماسة فيه هي التي لم يحصل عليها بعد.. هكذا أبدا بلا نهاية ..

والطعام القليل والفكر الكثير أعظم متعة في الحياة في نظري » (4).

لعل السطر الأخير فيما يقوله صاحب هذه النفس من أنضج الرؤى في عالمنا الذي آثر تماما أن يتلهى عن الجدية وعن التفكير، وصب كل اهتماماته على المادة الغاشمة، وصم أذنيه عن كل تفكير ناضج، وركز على إشباع المعدة والجسد. ولو لم يكن محمد عبد الحليم عبد الله من الذين شقوا وتعذبوا، فإننا لم نكن نعثر على مثل هذه الرؤية الناضجة وذلك التفكير الجاد، لأن المرفهين لا يتوصلون إلى مثل هذه الرؤى أو تلك النتائج بالضرورة. والذي يلاحظ حياة محمد عبد الحليم عبد الله أو

عبد العزيز في «بعد الغروب»، سوف يجد بالضرورة أن هناك قاسما مشتركا في الحياة الاجتماعية السائدة. وهذا القاسم المشترك هو التفاوت الطبقي بكل أبعاده وملامحه و نتائجه. هنالك السواد الأعظم من الرعية (وليس المواطنين لأن المواطن هو من يعرف حقوقه وواجباته ويملك قدرا من الحرية للمعرفة بغير حدود) وهنالك أيضا القلة التي تملك وتتحكم، وتشكل هوية المجتمع وفق تصوراتها الطبقية والمصلحية.

والبطل هنا من السواد الأعظم، فقير، يسعى من أجل التعليم، ثم يسعى من أجل التوظف لتأمين لقمة عيش له ولمن خلفهم وراءه أبا وأما وأشقاء، ولكنه يصطدم بالواقع الذي لا يتحرك إلا بالواسطة، والذي يسوده عفن التخلف والميوعة والمصلحة الخاصة.

آلام

والبطل هنا رمز للصمود في مواجهة الواقع والإصرار على تجاوزه مع ما يلاقيه من إحباط مستمر وتمزق عاطفي و تصور مادي. وأشق شيء على النفس أن تسير في طريق رزقك حذرا تتلفت وتتوقع مع كل خطوة أن تحل بك كارثة. هنالك لا يستقيم لك السير ولا تأمن سوء المصير .. ولكن البطل في هذه المحنة يقف ثابت الجنان وينزلق مع تيار الآلام وجها لوجه «الآلام يا بني تملأ الحياة فلا تفتش عنها في صفحات الزمان، وهو يترك خطاه حرة مسترسلة في دروب المقادير. ومن ثم فقد أنتقى الكتب. والدنيا التي يرسمها المؤلفون أشبه شيء في نظري بالفاكهة التي يصنعها التلاميذ من الشمع والصلصال، ولقد كنت وأنا في مثل سنك مشغوفا بالقراءة حتى ظننت أن الحياة عدة محاضرات يطالعها المرء فيعرف كيف يحيا حياته، ولكني فجعت في خيالي هذا يوم أن ولجت أبواب العمل فأدركت أنني كنت أتعلم السباحة على رمل أو حصير» (6) وسوف يلتقي هذا البطل الذي ولج أبواب العمل وأدرك أن السباحة بين الكتب هي سباحة على الحصير، مع «مختار»، بطل «شمس الخريف» وأنا لا أستبعد أن يكون البطل واحدا وإن اختلفت قصة الكفاح

والصمود في مواجهة الواقع وتجاوزه. فـ«مختار» ، الذي تمزق نتيجة لزواج أمه من رجل «مُطربش» يخوض الحياة منذ نومه في المساجد وصراعه مع الحياة عاملا في إحدى «اللوكاندات» ثم ساعيا للبريد، ثم ساعيا لطلب العلم من جديد ومواصلة الحياة بإصرار لا يلين ودأب لا يتوقف. إنه لا يختلف في النفسية الجادة والطموحة والمرهفة التي تشكل حياة «عبد العزيز»، عن نفسية رجلنا أو كاتبنا محمد عبد الحليم عبد الله. ومع أنني تأثرت كثيرا للعذاب الذي لاقاه «مختار» فإنني أشفقت على «عبد العزيز»، والحياة تنزل فوق رأسه بكثير من الرزايا. أن سيرة البطلين وصانعها لا تختلف كثيرا، ولعل هذا ما يفسر بأن كاتبنا « نمطي" في شخصياته، كما يرى بعض النقاد، ومع ذلك فإنني لا أرى في هذه النمطية عيبا، بقدر ما أرى فيها انتماء للواقع الذي تتشابه شخصياته الجادة والطموحة، وتنطلق رؤاه من معين المواجهة والمعاناة.

ظلام

ولعله يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند خصائص هذه الشخصية التي تمتلك ما يؤهلها لأن تكون أهلا للحياة. فهي ذات نفسية تمرست على مواجهة القسوة الاجتماعية الممثلة في الفقر والحرمان والكدح المستمر دون تأفف أو صراخ. «ليس رغيف بين قصورك، إنما هو هناك بين الحقول» (7) «ولست أدري لم أكبر أولئك الذين يثبتون على الصهر وتصلب أعوادهم أمام المصائب! كم تمنيت أن أكون واحدا منهم، فهم ولاشك طراز من الناس فيه زيادة على الناس» (8) ومن هذا المنطق فان أصحاب اليقين النفسي والعاطفي يقدرون على العطاء «لم ترض لى حياة مثل حياتك.. فحملتني على كتفيك وخضت بي صعاب الحياة في القرية، في زمن خيم فيه الظلام على كل شيء، ظلام الجهل و ظلام الاستبداد وكنت تمشي على نور ضئيل لتصل بي إلى شاطئ النجاة يوم صممت على تعليمي.. فقد كان أملك أن ترى ملابسي خيرا من ملابسك وسكني خيرا من سكنك.. ومعرفتي أرقى من

معرفتك.. ورغم النور الضئيل الذي تمشي عليه فان نور قلبك الذي ملأه حبك لله هداك وهداني».

كان غيرك من الآباء يملك ولا يعطى، ولكنك .. لا .. يا أبي. أعطيت وأنت لا تملك إلا القليل . وأملى أن أحقق لأولادي ما حققته أنت لى» . (9) « وبالفعل فقد حقق الكثير لأولاده وغير أولاده .. رحمه الله.

صوفية

وأصحاب هذا اليقين النفسي والعاطفي يرتقون إلى نوع من الصوفية الزاهدة التي لا ترضى بالتملك والاكتناز والبخل. « دنياكم هذه مومس هلوك، أعرض عنها تقبل عليك .. لا تسألني عن تفسير هذا فإني لا أستطيع.. إن ذهني الآن لا يدرك إلا المعاني الكلية المجددة السامية فلا يتدلى إلى حضيض الجزئيات» (10) . ونحن نفسر ذلك بالأرضية التي أقام عليها بناءه الفكري والإبداعي في كل ما كتب وهي أرضية اليقين الإسلامي بكل معطياته من الإيثار والمحبة الإنسانية الخالصة، وكل ما نملك هو ملك للغير محبة وتضامنا وتعاطفا. « ولكي أزيد الأمر وضوحا لك يا صديقي أقول أن الأنانية عندي تقابلها الإنسانية، فإذا أردت ألا تكون أنانيا فأحب كل إنسان وكل وطن ولكن هل تستطيع ! » (11)، إن رؤيته الإنسانية الشاملة تصطدم بواقع المجتمع دائما ولكنه يدرك ذلك سلفا بقوة اليقين الإسلامي، «هكذا نفس الإنسان، لا يفارقها شيطان الجبروت، ولا تصفو من شوائب القسوة حتى تطهرها الهموم والآلام . فتشفق لا على الانسان وحده، بل إنها لتحنو على الحيوان !!» (12) .

كتب الأستاذ رجاء النقاش في مجلة الآداب اللبنانية يقول عن دراسة قام بها ضابط صهيوني عن الأستاذ «نجيب محفوظ»: «هذه الدراسة ليست عملا سطحيا سريعا بل هي دراسة عميقة تقدم وجهة نظر جديدة في أدب نجيب محفوظ هو : «

كاتب إسلامي يهتم بالقيم الروحية .. وهي وجهة نظر جديدة وغريبة وقابلة للمناقشة» (13) .

والذي نود أن نقوله هنا تعليقا على كلام الأستاذ رجاء النقاش، أن ما قاله الضابط الصهيوني سبق إليه الأب جاك جوميه في دراسته القصيرة عن الثلاثية، ثم إن «نجيب محفوظ»، مع كونه كاتبا له أهميته وتأثيره، وأن كتاباته التي تعبر عن القيم الروحية الإسلامية مسألة فيها نظر، فإنه يعد بالقياس إلى محمد عبد الحليم عبد الله أقل تأثيرا في ميدان التعبير عن القيم الإسلامية.. فالأول قد ناقش المسائل الروحية بشيء يثير الجدل حقا، أما الثاني فقد عبر عنها بيقين ثابت لا يتزعزع و بعد رحلة طويلة من التشرب ومعايشة القيم الإسلامية قولا وسلوكا.. وتلك مأثرة تضاف إلى مآثره في الإضافة إلى عالم القصة العربية المعاصرة (14)وهذا اليقين الإسلامي هو الذي جعل العطاء أس حياته الحافلة (15) وخلق لديه انسجاما حياتيا بين الذات والمجموع «.. لأن في بعض القلوب كنوزا لا تنفد ينفق منها أصحابها ليسعدوا المجموع على حساب نفوسهم»(16) ..

أديب

يبقى بعد ذلك من خصائص البطولة في شخصية صاحبنا عبد العزيز خصيصتان: الأولى : القيام بمهام أكبر من الطاقة، وتحمل الأعباء الثقيلة. وقد كان صاحبنا أديبا، ومهنة الأدب من المهن الثقيلة حقا ، والأديب خاسر على أي حال فإن عذاب المعرفة والنزوع إلى الأفضل ، ورداءة الواقع، والمشقة المستمرة في تجاوزه.. كل هذا يشكل حياة الأديب، وفيها خسارة أي خسارة .. وإن كان يعزّيه أحيانا لذة التعبير ، وتجسد الفكر، وتأثر القراء به، و«ولكن الذين يمتحنهم الله بالأدب قلما يفكرون في الشيخوخة، وقليلا ما يرعون حقوقها» (17). وأنى لهم ذلك؟

الخصيصة الثانية: هي الاحباط المستمر في موضوع الحب، ولسنا ندري لماذا؟ أهو إشفاق منهم على المحبوب؟ أم هو نزوعهم المالي المطلق؟ وربما كان ذلك تجربة شخصية عاناها الكاتب وأثرت في نفسه الى الحد الذي جعله يتحدث عن ذلك الحب المحبط (مع أميرة) حديثا شجيا وأسوانا .. ولكنه بقوة اليقين النفسي والعاطفي يتجاوز المحنة مجروحا ويتحدث إلى هذه الـ « أميرة»، بعد الغروب: «..مشكلة الحياة يا سيدتي هي أن يعتقد المرء أن شيئا مرا ضرورة له في حياته.. ثم تقوم العراقيل بينه و بين هذه الضرورة ثم يكدح و يكدح فلا تزول العراقيل ولا تنتفي الضرورة.. وهنا تطغى على النفس موجة من التشاؤم قلما تخرج من نطاقها النفسي» (18).

مائعة

في مقابل شخصية البطل التي تملك اليقين النفسي والعاطفي القائم على الأرضية الإسلامية نجد صورة أخرى لشخصية مائعة ورخوة لا تملك ركيزة من الاعتقاد أو أساسا من الفكر وسوف نورد وصفا كاملا لهذه الشخصية فيما بعد إلا إننا نود أن نقول إن هذه الشخصية المانعة المفرغة نتاج لمجتمع غير منسجم نتيجة للتفاوت الطبقي والتخلف العلمي والعقلي والفراغ الروحي والعقدي.

«.. ولجت أبواب الحياة فتبين لي أن ما تعلمناه في المدارس كان سباحة على رمل أو حصير لأننا في مدارسنا لانشرب الفرد حب الجماعة، ولا نعلمه التنافس الكريم، ولا نرصد المواهب فنوجهها وإنما يسير كل شيء منها كما اتفق» (19) و لعله يفسر لنا هذا الواقع بنماذج محسوسة عندما يصف حاله في المدرسة: «.. فقد كنا هناك ثلاث فرق، فرقة المجتهدين الذين لا يعرفون إلا ما ندبوا له من عمل. و كنت – وا أسفاه – امثلها وحدي ، وفرقة الذين حميت ظهورهم فلا يضربون على بطونهم كما يقولون في ريف مصر، و كانوا أقلية. أما الأكثرية فهم حاشية الناظر، وتختلف درجة سعادتهم بمقدار قربهم أو بعدهم عن القطب الأعظم» (20).

وهذا التقسيم الثلاثي صحيح إلى حد كبير، فإن العلاقات الشخصية تصبح صاحبة السيادة في أي مجتمع متخلف ومفرغ من القيم والعقائد.. ولعله يركز في الفقرة التالية – والتي تنبعث منها مرارة ملحوظة على ملامح هذا الواقع تركيزا مفيدا.

«.. وأرسلت طلبي بالبريد موقنا أني بعثت به إلى القبر ، لأني لن أسعى في سبيله وليس عندي استعداد كثير ولا قليل لأن أعيد مأساة الوسطاء، كما أنه لم يكن عندي استعداد لأن أقيم في قريتي متعطلا ، ولست أرضى كذلك بأن أعود مرة أخرى إلى مصنع المنتجات الزراعية .. ولبست نفسي ثوبها الأول حتى كأنها لم تخلعه في يوم من الأيام .. » (21)

طبقة

نتقل الآن إلى نقل صورة رسمها هذا المجتمع بتكوينه الطبقي، وقد نتجت هذه الصورة عن الطبقة المرفهة التي كانت تملك أسباب الحياة.. كل الحياة . وقد آليت على نفسي أن أنقلها كاملة، لدقة الوصف والتعبير ، وعمق الرؤية والتفكير:

«.. ثم عرفت مع الأيام من يكون هذا الأستاذ سامي؟ فهل تحب أن تعرفه؟

طراز من الشباب ناعم مدهون، حملته الحياة على أكف سخية، فهدهدته وغنت له . اسمه في سجل المواليد «سامي» ويدعوه أصدقاؤه «سامي بك» وقد يلقبونه في مكتبه باسم «الأستاذ» ويدللونه في البيت باسم «سوسو» فأنت ترى الآن أربعة أسماء لشخص واحد، قد توحي إليك بأنه من الجائز أن يكون لصاحبها أربع شخصيات، وقد يكون في الرجال خلقا فريدا ، ولكنه مع الأسف ليست له نصف شخصية.

لا تقل أنه غريمي، لأني سأسرد عليك مجمل خلاله:

ألذ الأوقات التي يقضيها في أربع وعشرين ساعة، وقت يمضيه عند الحلاق أو في الحمام أو واقفا أمام واجهة أحد المحال ليرى أكثر الألوان انسجاما على ذوى

الوجوه البيض، وهو أبيض الوجه. يحبه «الترزي» أو يكرهه.. يحبه لأنه كثير الملابس، ويكرهه لأنه يعيد إليه الحلة ليصلحها عشر مرات. يجيد التحدث عن «الأفلام» ويحفظ أسماء الممثلات خاصة، حتى لقد نظمت احدى المجلات الأسبوعية مسابقة عويصة الموضوع، فكان الفائز فيها. وكانت هذه المسابقة أن رسمت المجلة عشرة أزواج من عيون الممثلات بين غربيات ومصريات. وكتبت في أعلى الصفحة: «أتستطيع أن تعرفهن من عيونهن» وكان الأستاذ سامي هو الذي عرفهن جميعا بما له من عبقرية.

يمضغ الكلمة مرة أو مرتين قبل أن يتفضل بها عليك فيخرجها من فمه ثم يرسلها من بين شفتين تأخذ سفلاهما وضعا، وتأخذ علياهما وضعا اخر عند مخرج الكلمة وحين تتحدث اليه تجد نفسك غير مشغول بما يقول، ولو انك تكون ولاشك ناظرا إلى فمه باهتمام شديد، ثم يفرغ الأستاذ من حديثه وتراجع نفسك فتسألها عما كانت تهتم به، فتجيبك بأن عنايته بأسنانه الناصعة البراقة هي التي استأثرت باهتمامك طول حديثه. ثم لا تلبث أن تقول: لن يتحقق مثل هذا البياض لأسنان هذا الشاب إلا إذا كان ينقعها في منظف طول الليل.

يُحرّك عنقه بتقدير لأنه يخاف على باقة قميصه المنشاة أن تتكسر وعلى عقدة رباط العنق أن تتحول. يؤذيه البرد بسرعة، وتلفحه الشمس إن رأته كأنما تفتحت عنه وردة !!

لسان «مختلط» عام وهو لا يكاد يحسن لغته، ولست أقصد أنه يُجيد معظم اللغات الحية، وإنما أقصد أنه إذا تكلم في شأن ما، بلغتنا الفصحى أو الدارجة، وقف فجأة في أثناء الكلام كمن يعالج معنى لا يجد له لفظا. يقلب كفه في حيرة، ويقطب جبينه في استغراق، و يطمح ببصره في شرود ثم يزلزل الجبل فيقذف حصاة، حين يلجأ إلى التعبير عن المعنى الذي ظنه عميقا ولم يجد له في لغتنا لفظا، بكلمة فرنسية أو إنجليزية في عاميتنا وفصحانا ألف مرادف لمعناها.

وهو بعد ذلك غير مبرز في ميدانه، محام عادي ، ولن أقول إنه أقل من العادي حتى لا تتهمني . نزق سريع الغضب. مندفع لا يتدبر العواقب. وإن الله الذي يلقى في قلوب الناس حبا من أول نظرة، قد ألقي في قلبي وقلبه مقتا من أول نظرة كذلك. لم تعجبني خلة فيه لأنني رأيته لا يمنح الشيء ما يستحقه من اهتمام. فهو بالغ في العناية بهندامه إلى حدّ قد لا تصبر عليه الفتيات، ويتحدث في أمور لا تعتبر من الأهمية بحيث تشغل ذهن السواد الأعظم من الناس، حتى اذا ما دفعت به الظروف إلى أحد ميادين الفكر التي يجدر بكل مثقف أن يتكلم فيها، ألفيته فج الأفكار، ضعيف العبارة، سقيم الحجه، وهو نبات متسلق لا يتأتى له أن ينهض إلا معتمدا على سياج، أو متشبثا بجذع شجرة، من أجل ذلك هو يتملق عمه تملقا مكشوفا يستطيع أن يسميه الأستاذ توددا واعترافا بالجميل، أما أنا فلا أعتقد فيه إلا أنه متملق..» (22) .

مضادة

ولعل القارئ لا يحتاج إلى تعليق على هذه الشخصية الهشة والمائعة والتي هي نتاج مجتمع زائف فه تفاوت عظيم. بيد أنه يهمنا هنا أن نذكر أن حياة محمد عبد الحليم عبد الله مثلت النموذج المضاد لهذا الشاب (سامي)، وكانت بكل خصائصها التي أوضحناها سلفا تقدم حياة مشرقة ومشرفة في كل آن وحين.

ولعل محمد عبد الحليم عبد الله كان يشعر بطريقة النهاية الدراماتيكية التي ختمت حياته، ولعل إيحاءه بانقطاع الحياة مع «أميرة» في روايته بعد الغروب، كان إرهاصا بشكل ما أنه سيودع الدنيا مجروح القلب والوجدان، وأن موته في مدينة دمنهور يوم الثلاثين من يونيو 1970م إثر فهم غبي لمعنى التطور الاجتماعي والحرية الاجتماعية، لدليل قاطع على مدى التخلف الذي نحياه والذي تعيشه بلادي، والذي نطمح جميعا إلى تجاوزه والتفوق عليه باليقين والمعرفة، والعلم والإيمان.. حقا لقد كان هذا التخلف هو شغله الشاغل، وقد نذر حياته للتعبير عنه

ومواجهته مما حدا بالأب «جوردان مونو»، أن يقول : «..إن فكـر المؤلـف الراحـل يقصد محمد عبدالحليم عبدالله قد تطور في كتابه الأخير (للـزمن بقيـة) ، فرأينـا في سطوره ملامح الصورة القاسية لحياة الريف المصري من إظهـار الكفـاح المريـربين الفلاح والأرض إلى حد إبراز الصراع العنيف بين طبقات كل الفئـات وخاصـة في القرية.. » (23) .

إن حياة محمد عبد الحليم عبد الله جديرة بالاحترام.. فهي حياة.. أي حياة!

***

الهوامش

(1) بعد الغروب، ص 6

(2) قصة لم تتم، ص 6.

(3) بعد الغروب، ص 56 .

(4) من آرائه التي عثرنا عليها في أوراقه الخاصة، ولعله قد يكون نشرها في إحدى الدوريات ولم نحصل عليها.

(5) بعد الغروب ص 19

(6) بعد الغروب، ص 16-17

(7) السابق، ص 78

(8) نفسه، ص 9٠

(9) من أوراقه الخاصة .

(10) بعد الغروب، ص 34.

(11) بعد الغروب ، 54 .

(12) بعد الغروب، ص 7.

(13) مجلة «الآداب» اللبنانية عدد أب/ أغسطس 1972م ص 12 .

(14) توج هذا اليقين الإسلامي برواية « الباحث عن الحقيقة، كما اننا نستطيع أن نلمس جوهر هذا اليقين في أعماق رواياته وقصصه القصيرة الأخرى.

(15) راجع فصل « الغروب المستحيل» .

(16) بعد الغروب، ص 113 .

(17) بعد الغروب. ص 98.

(18) بعد الغروب ص 150 .

(19) بعد الغروب ص 17 .

(20) بعد الغروب ص 19.

(21) بعد الغروب ص 222.

(22) بعد الغروب ص 198-200.

(23) من حديث للأب «جوردان مونـو» المستشرـق الفرنسيـ - إلى جريـدة «ليسامى» عدد 665 في 3 أكتوبر 1971م.

***

هذه الجنة العذراء

كانت أرضنا الحنون بكل عطائها وخصبها وشقائها و عنائها جنته البكر التي لم يمسسها أحد في وجدانه وخياله، في الفـردوس الـذي يحملـه في أعماقـه أني سـار وحينما توجه.. يحنو عليها وينميها ويشذبها ويسويها. ويشعر أن كـل اعتـداء عليهـا على هذا الفردوس اعتداء عليـه وانتهـاك لحقوقـه المشــروعة، وتـدخل في شـؤونه الداخلية. ومن ثم كان العناء وكانت المعاناة و كان الحلم وكانت المُنى.

وليست عزبة الحاج «ماضي» هذا الرجـل الـذي يشـبه الأرنـاؤوط إلا حيـاة مسافر هجر وطنه كرها، وعاد إليه كرها، ولا يملك المسافر إزاءها إلا الحب الأيدي الخالد.. لماذا؟

لأن عطر الريف وأريجه هما أكسير حياته وعطائه المتجدد، في وجـود أكـواخ السباخ والمستنقعات وأشجار السـنط شـحيحة الظـل، وقسـوة «الخـولي» في ذلـك الفردوس بعصاه التي يلوح بها في الفضاء الخالي لتقع على ظهـور الأطفـال الغضـة والأجساد الطرية فتلهبها وتذيقها سوء العذاب!

رائحة

في الجنة العذراء يستشعر الطيبة والسمو، و يشرب من فيض الله صفاء ونقاء، و يكتسب بالفطرة مناعة المقاومة في الزمان الأجرب.. وبعيدا عن هـذه الجنـة فإنـه يحس اللؤم والسفالة، و يعاني خليطا من الضيق و مزيدا من القهر، ويسقط صريعـا أمام غارات الظلم العاتي!

وليس معنى ذلك أن جنته العذراء قطعة من عدن او الفردوس الإلهيين، وإن كانت تعبق ببعض أريجها.. فليست كذلك خلوا مما يحـدث في غيرهـا مـن الجنـان الأرضـية والمـدائن العـامرة .. إنهـا مـلأى بـألوان شـتى مـن الظلـم والظـلام

والتخلف،بيد أنه في جنتنا العذراء توجد أرضية صالحة، ورائحة طيبة تعزيه عن الواقع المرّ، فيها وفي غيرها. وتتمثل هذه الأرضية الصالحة وتلك الرائحة الطيبة في هذي الشموع الخافتة والجذوات المتقدة التي تتوهج باستمرار وتكافح هاته الأعاصير ، وعواصف الزمان، وتعيش رغما عنها جميعا.. ترفع الظلم و تضيء الظلمات..

ولعل هذا يفسر إصراره على أن يحمل عبق الحنة العذراء أو مصرنا الحنون في حنايا قصصه وأفكاره، يتناوله في الصور المختلفة والجزئيات البسيطة والخطوط العامة دون أن ييأس من المعايشة لهذا الواقع المتخلف والمظلم.. فقد كان بحق متفائلا بل أكثر تفاؤلا من غيره حتى في أكثر ساعات المحنة قسوة وأشدها ظلاما. يقول خلال رصده لواقع الوطن في الحرب العالمية الثانية :

«وصمت جابر ثم قال لأول مرة بصوت خفيض :

- شعب يعجبك .. لكن .. عيبنا حكامنا .. تتعدّل» (1).

وتفاؤله بتعديل الأمور وصلاح الأحوال كما يقول المصريون لم يكن نابعا من فلسفة مؤقتة تذهب بذهاب زمانها و أوانها، ولكنه تفاؤل من وصل إلى اليقين عن عقيدة راسخة لا تزعزع بأحداث مهما اشتدت قتامتها وضراوتها.

شهادة

ولم تكن الجنة العذراء في يقينه إلا مصر بكل عطائها ومفارقاتها. بكل الأصول والفروع. بكل الأشجار الطيبة وأيضا الأشجار الخبيثة الطارئة. ومن ثم كان رصده لواقع مصر شاملا وكاملا ويمتد إلى شريحة عريضة شاملة لكل الخصائص والمكونات.. شهادة على عصر تعيشه مصر، وأملا في حلم جميل يراوده من أجلها.. ولهذا كان حبه لمصر شديدا، مع كرهه لواقعها المر . كان يُحب مصر المستقبل الأخضر.. ومصر الماضي العظيم.. و يكره واقعها الراهن الذي يلتف بالغلائل السود وكأنه لا يريد أن يخلعها!

لقد راح محمد عبدالحليم عبد الله يرصد الواقع في القرية المصرية، وأيضا في المدينة المصرية. وهو يعرف القرية المصرية كما أسلفنا معرفة وثيقة مع أنه حرم من الحياة الكاملة في القرية منذ صباه الباكر، فقد رحل إلى القاهرة ليتعلم بمدرسة دار العلوم -كلية دار العلوم الآن في ثلاثينيات هذا القرن.. وكان في مطلع صباه وظل من يومها مقيما بالقاهرة طالبا وموظفا وكاتبا معروفا ومشهورا و بارزا، حتى الوداع الأخير حيث عاد جثمانا ليُدفن فوق تراب القرية التي أنجبته. وإذا كان قد حُرم المعيشة الكاملة في القرية إلا إنه لم يكن ليتأخر أبدا، وفي أي مناسبة، عن الهجرة إلى كفر بولين حيث أبوه وأمه وأشقاؤه، وأقرباؤه وأحبابه، يهرع إليهم ويهرعون إليه ويعيشون معا تفاصيل حياتهم بدقائقها.. فيحمل همومهم معه عندما يعود إلى القاهرة المحروسة، وينوء بها حتى يجد حلا عمليا، أو يُنفِّس عن المكظوم بكتاباته الفنية .. رواية أو قصة أو غيرهما.

وقد تناول الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي هذه الجنة العذراء في روايته الشهيرة «الأرض»، وأعطى من خلالها صورة واقعية يتحدث أناسها بلهجة عامية. ويتصارعون من أجل الأرض ولقمة العيش، كما أعطانا ملامح هذا الصراع من خلال الظلم الواقع، والتخلف المهين الذي يعيشه الفلاحون المصريون في إحدى قرى مصر. واذا كان الصراع هنا يتحول الى صراع تحكمه المادة أولا وآخرا، فان الصراع في الجنة العذراء لدى محمد عبدالحليم عبد الله يتجاوز ذلك إلى صراع شامل، مادي وروحي، حيث الحياة الإنسانية كلها وفي زمن الحرب الثانية مهددة بالموت كمدا يشلها ويشقيها، ويسقيها من العذاب ألوانا.

نتاج

وليس الحاج ماضي إلا نتاجا للتخلف الروحي السائد في زمنه، وذلك عندما يتصرف راغبا ومتشهيا و كانزا للمال وباحثا عنه، ومضيفا كل يوم مساحات جديدة من الأرض إلى ملكيته.. ليس الحاج ماضي أيضا إلا نتاجا للتخلف الاجتماعي

الذي أتاح له فرصة السيطرة على مزيد من العقار والأراضي والاستفادة من ظروف اقتصادية سيئة للغاية «ذلك أن زوجة وزير الزراعة قد اشترت من الحكومة أربعمائة فدان تقع في شمال أرضه ببضعة كيلو مترات من الجنوب، وعندما تزرع هذه المساحة، وتعمق الترعة و توسع فسيتغير الموقف في أرض الحاج ماضي »(2)، وقد تحقق للحاج ماضي مزيد من الاشباع المادي والجنسي؛ وإن كان في ذلك الوقت قد بدأ يفقد القدرة تدريجيا على التحكم في مقدرات ما يمتلكه، ويفرض سلطانه عليه.

والحاج ماضي في ذلك الوضع، يخضع إلى ما تعارف عليه الفلاحون بما أوتوا من حس ديني، واشباع روحي كامن الى دورة زمنية تقوم فيها الطبيعة بدورها خير قيام، فتؤدبه أدبا رادعا، وتسقيه من المر ما ينسيه كل حلاوة ذاقها سلفا. إنه العقاب الدنيوي الذي يهبط في الحياة وعلى مرأى ومسمع من المعني بالأمر.. لقد جمع الحاج ماضي كثيرا، وكنز كثيرا، ولكنه عاش الحرمان بكل قسوته وجبروته كأبشع ما يعشه مخلوق، وعاني مرارة البعد في القرب، والعذاب في الجنة !

وكان بعض الأتقياء والتقيات يتساءلون: لماذا يمد الله للظالم في أسباب النعمة؟ فيرد عليهم بعض الأشقياء المحرومين بأن النعم قد تكون من عذاب الله. ثم يضحكون من منطقهم هم أنفسهم داعين الله أن يعذبهم في الدنيا باللحم والفطير والموز!! وترتفع ضحكة من مكان ما خلف النخيل كأنها رد على الحوار، وتمضي الحياة بطريقة غير مبالية فيها دموع وجوع وأشياء أخرى.. (3).

نبع

إن الحس الداخلي لمحمد عبد الحليم عبدالله مشدود دائما إلى النبع القرآني الذي استقى منه كل قيمه ومثله وجماع نظرته إلى الحياة والى الواقع والى المستقبل غير المرئي . سوف نجد بالقطع صدى مطابقا لما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(4)، وقوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ (5)، وقوله

تعالى﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

وحقا كان ربنا سبحانه وتعالى بالمرصاد للحاج ماضي، وأملى لـه حتـى شـبع عذابا، ولم يغفل عما فعله حتى جاءه ابنه «رضا»، متخفيا فلم يعرفه، وإن كـان قلبـه قد شعر به وازداد نبضه حركة وهما يتبادلان حـديثا و كـأنهما غريبـان وليسـا ولـدا ووالده !

إن حرمان الحاج ماضي من زوجه بهية ومن ولده رضـا، ومـن قـبلهما ولـده حمودة الذي قهره بالنزق وعدم الانقياد، جعله يفقد سلطته وأرضه وتنوء به زوجـه أم حمودة، فرائحته الفاقعة مازالت تملأ الفضاء، وأسـنانه الصـفراء مازالـت تحـدق بمنظرها الكريه على صفحة وجهه الأرناؤوطي.

نستطيع معا أن نستشف صورة عميقة و بالغة الدلالـة تعبـيرا عـن الحرمـان القاسي والأسى الباطن لدى الحاج ماضي وزوجه بهية:

و ناداها« ماضي» ، وسألها:

- أنت خائفة؟

فهزت كتفها:

- لم يبق شيء أخاف منه، أنت الذي تخاف- من الله طبعا.

وضحكت مستهزئة:

- ومن « حمودة».. وسكتت، ثم أردفت:
- إنني لم أحمل حراما.. إن هذا النائم من هذا الصاحي وأشارت إلى ابنها وإليـه .. فهمس:
- هل أغلقت باب الدار ؟
- وهل أنت تسرق ؟

وهبت كالملسوعة :

- سأقوم وأفتحه وأسأل الخفير عن ورقة سيجارة لف ليعرف الناس أنك عندي(7).

ثالوث

صورة عميقة حقا، تنطق بشيء ما يختلج في أعماق ريفنا الحزين نتيجة للبؤس ومؤثرات التخلف.. أن الحاج ماضي نتاج زمن مختلط السمات غائم الملامح لا لون له ولا هوية سوى الفقر والتخلف والعجز .. وهذا الثالوث متعدد الألوان مختلف الدرجات، متباين الصفات . ونحن لا نملك ازاءه إلا أن ندين الواقع كله، هذا الواقع الذي دفع رجلا متخلفا في فكره إلى أن يتزوج فتاة صغيرة، ابنة صديقه، ويمارس معها حياة بدائية ، ومن الغريب أنه لا يحافظ على هذه الحياة البدائية، بل يتركها لحياة أكثر سوءا ورداءة و نذالة أيضا. كان وصفه واقعيا ذلك الذي يقول :

« فقد كانا نصفين غير منسجمين. وقد صدمت فيه من الليلة الأولى.. ليلة نامت عروسا جريحة كما تقضى تقاليد الريف، بعد أن ثبت بواسطة يد الزوج أن العروس عذراء فانطلقت الزغاريد » (8)، ولعل الوصف التالي أكثر انطباقا على هذا الحاج ماضي وإن كان المقصود به آخر .. إلا إنه أكثر واقعية وجمالا مع رداءة الموصوف:

«.. أما أبوها فقد كان يعرض عن القلة السليمة ليشرب من التي كسر عنقها، وينحي الملعقة بأطراف أصابعه ليغرس يده في الطعام و يتجشأ وهو يأكل، ويملأ شدقيه ويتكلم، وإذا ما استلقى إلى جوار زوجته فاحت رائحة جسمه»(9)

وفي اعتقادي أنه لا فرق بين الحاج ماضي ووالد «بهية»، فكلاهما تفوح منه الرائحة غير الطيبة، والطيور على أشكالها تقع .. لقد شاركا معاً في صنع مأساة.

وهذه الصور مألوفة في الريف نقلها إبداع كاتبنا رحمه الله واقتداره بحسه المرهف وشعوره المتقد، وقد نقلها ليزرع في يقيننا أن الريف مازال ملتفا بملاءة ظلام كبيرة(10) من قصة لم تتم و لابد أن نرفع هذه الملاءة إلى الأبد، لينتقل إلى الزمان الراهن والحياة الكريمة، بعد أن تزول القيم البالية والتقاليد الرديئة والسلوك القبيح.. إنها مرحلة الصراع بين البدائية والتحضر، والكاتب في يقينه يحسب أن هذا الصراع مرير وممتد أيضا، لذا فإنه نظر إلى المدينة نظرة أخرى مشابهة مليئة بالشك والحيرة فالقرية والمدينة جانبا الجنة العذراء.. «وأدركت أن المدينة عذابها» (11). بيد أن الصراع في القرية مازال يملأ الأذان بصفير عال لا ينقطع ودوي رهيب لا تذوب ذبذباته مع مر الزمان ، والحاج ماضي قد خلق المشكلة أو جسّم المشكلة بمعنى أصح، فقد أقتني أرضا ومالا وبنى بامرأتين، الأولى معها حمودة، والثانية أنجبت «رضا »، وهنا تتحرك المأساة على قدمين دون عكاز . وقد هجر الحاج ماضي «بهية» وابنها رضا، ودبر لهما ابنه «حمودة» فخا وقعا فيه، فغادرا القرية على مضض الى المدينة ، وتاها في جوفها المظلم والمضطرم والخافت. أما الأولى أم حمودة فقد بقيت مع الحاج ماضي وابنها حمودة الذي سلب أباه كل السلطات وسيطر على مقدرات الأمور وعاش يمارس الإرهاب والقهر بصلافة الأغبياء وجموح الحمقى، ولو أردنا رؤيته إنسانا فلن نجده إطلاقا.. لكننا نعثر عليه جسدا تقمّصته روح شريرة تمارس القهر والقمع ووأد كل زهرة خضراء أو بُرعم غض الإهاب.. وأبرز ملامح هذه الروح الشريرة:

- دبر لزوجة أبيه التي تعيش في الخلاء البعيد وعلى طرف القرية في بيت منعزل مع ولدها «رضا» خطة ليفضح المرأة ويجبرها على الرحيل ليخلو له الأمر ويرث وحده كل شيء.. «ودلّها قلبها على أن المراد ليس سرقة ولا هتك عرض ولكن المراد فضيحة .. فتأهبت للصراع» (12)، وإذا كانت بهية قد أدركت ذلك

بإحساسها الداخلي وتجربتها السابقة فان حمودة قد اتجه نحوها ونحو الرجل الذي وجد في دارها ليلا.. «وطوح بالعود في الهواء فوسع له الجميع»، وأنّت أنوار المصابيح في الناحية الخلفية من الدار (الخاطئة والقذرة) على حد تعبيره في نصف ظلام ينهال عليهما ضربا وهما يتأوهان وبقية الفلاحين يستحلفونه أن يعفو عنهما» (13) !!

جبروت

ليست هذه صورة عادية في ريفنا المصري الحزين، ولكنها تمثل الجبروت الذي أعطيه حمودة لكي ينفذ إرادة الغباء ومشيئته، ومنذ ذلك اليوم وقد نُفّذت في القرية الحزين وظلت مخالبه الجاهلة تنهش الناس و مصائرهم.

- إنه صورة الجهل حين يمضي طليقا بلا رادع فيمزق كتابا كان يقرؤه صبية صغار على شاطئ الترعة، يقذف به، مع التيار غير آبه للمعنى الذي يرمز اليه الكتاب أو مغزى علاقة الأطفال بهذا الكتاب، «و عندئذ بدا على الفلاح حرج وكدر، وتناول حمودة الكتاب ورمى به في الماء وأخذه التيار» (14)، وحمودة صورة العنف الذي لا يتوقف إلا بالردع والمقاومة، و كأني أرى هذا المنظر الأسوان وفلاح من القرية يشكو إلى الحاج ماضي ما فعله حمودة معه «وفي هذه اللحظة ناداه صوت متعب. كان صوت أحد الفلاحين وتقدم من الحاج ماضي ووضع في يده شيئا كما يضع قطعة النقود، وحملق ماضي بدهشة فقد كان في كفه ضرس كسر على أثر لكمه سددها حمودة إلى الرجل في اثناء العمل، ومضى الفلاح فغسل فمه وحمل الضرس الى الحاج «ماضي»، في الوقت الذي كانت فيه فتاتان من الفلاحات يتغامزن بعيونهن ويقلن زوجة (المضروب) لم ترض (للضارب). وقال الحاج ماضي باسما بعد أن عرف كأنما ليخفف عنه الإصابة: غدا ينبت لك غيره مثل بنتك «بدور».

فرد الفلاح في غيظ، لا والله الواجب أن تقول مثل ابني "حسن" : سأقدم هذا الضرس هدية له .. سلام عليكم يا عم الحاج» (15)

وقد أبر الفلاح في هديته، وكان لحسن شأن في المقاومة عظيم.

وليت الأمر يقف عند كسر ضرس فقط، بل إننا سوف نجد هنالك من تكسر ذراعه وهو مهاجر احتجاجا وخوفا:

«وهاجر أحدهم ذات مرة إلى عزبة أخرى فقابله في طريق السوق من كسر ذراعه بهراوة، وكيف يعيش فلاح بذراع مجبورة؟» (16) و بالضرورة فإن مثل حمودة لا يمكن أن يتعامل مع قومه البسطاء في مودة، ولا يمكن أن يأنس اليهم أو يتعايش معهم في أمن وسكينة، مع أن أباه كان سمسار بهائم. إذا فإنه لا يلوف إلا على من هم على شاكلته، فيتزوج ثانية من قوم لهم في الشراسة باع، ثم يسعى ليتشبه بهم، ويكون أكثر صيتا وسمعة. لقد انضم إلى صفوف الإقطاع وتمادى في ممارسة الظلم حتى قهره العدل «والظلم أحد الأبواب السبعة التي فتحها الله لجهنم.. » (17) و جهنم عدل مطلق لحمودة ماضي وأمثاله على تفاوت الدرجات وتباين الطبقات.

لقد ركّز «عبد الرحمن الشرقاوي» على المقاومة الريفية لجور الحكومة وظلم السلطة وفساد الحكم. بيد أن محمد عبد الحليم عبد الله قد أعطى اهتماما خاصا لمقاومة الظلم الداخلي الذي يمارس دوره الفاعل في المحنة التي يحياها الريف المصري وهما طرفان يتكاملان.. يكمل كل منهما الآخر ، وإن كانت المقاومة لابد أن تبدأ من الداخل ثم تندفع في كل الاتجاهات .

عذاب

وعذاب القرية يمكن تحمله بصورة أو أخرى مهما كان قاسيا، لأن المرء يستطيع أن يتكيف داخلها إلى حد ما، بيد أن عذاب المدينة لا يمكن تحمله ولو لفترة.. لأنه يفضي إلى الموت بالجوع . وأن تعيش جائعا في المدينة فلن ينتشلك أحد، لأنها بحر لجيّ ، واسع و عريض وعميق في آن واحد ، وقد عاش هذه المأساة رضا وأمه بهية عندما خرجا مهاجران تحت جنح الظلام وعلى كره شديد. وكأني بالكاتب

يتمثل في وجدانه أحزان الهجرة المحمدية وقسوتها.. كم أنت حبيبة إلى أيتها البلدة.. عبارة يرددها بمعناها و مغزاها كل مهاجر رغم أنفه.. (كانت الأم مشغولة بدموعها ، وهو وحده أحس كأنه يريد أن يودع أبراج الحمام.. أن يكلمها مادام لم يجد أحدا يقول له : ح توحشني !!) (18) وقد هاجر رضا وأمه وذاقا طعم المرارة والحسرة في تلك الدنيا التي يصعب فيها التنفس والحركة الطليقة، وإن كانت لا تملؤها سوى الحركة ! أليس هذا عجيبا؟

أتاحت له الظروف في هذه الفترة أن يتذوق هو وأمه طعم شيء جديد .. هو الجوع .. وعرفوا أن له في المدينة وقعا حادا أشد من وقعه في القرية حيث لا حقول ولا نباتات برية (19). لعلنا أدركنا هذا كيف يقاوم الفلاحون الفقر بما يقلعونه من الحقول وما يحصلون عليه من النباتات البرية. و كل مَن عاش منا في القرية يعرف طعم الملوخية والحميض والرجلة والسريس والخس والباذنجان والكرنب.. وهي أشياء تطبخ وتؤكل ومن يداوم على تذوقها فإنه بالضرورة في قريتنا المصرية ذو حظ عظيم. إن الجوع موت مطلق. موت الجسد وموت الروح جميعا. إنه « قوة لا تعترف بالقيم» (20)

ملجأ

وقد وجد رضا وأمه عند خاله بركات شقيق أمه ملجأ من الهوان والضياع،ومع أن هذا الخال كان قد خرج من القرية مفضوحا بسرقة حقيقية، فلم يتقبل أخته على أساس براءتها بل إنه عفا عنها وأرجع سبب هذه المصائب إلى أبيه «الله يظلم أبوك حب يعمل من الأعيان فباعك للإنجليز وللأر ناؤوطي الحاج ماضي» (21) ولعل ما دفعه إلى ذلك العفو هو واقعه المؤلم والمثقل: مكسب حرام، و حياة زوجية مثقلة لعله كان مشتاقا إلى حب بلا أشواك، فيه شيء من الروحانية كرغبة السكران في الابتهال إلى الله، فقد كان المكسب الحرام والحياة الزوجية الثقيلة الوطأة دافعا خلق فيه اللهفة إلى عمل شيء فاضل أو ضرورة الاحساس بالمشاعر

النظيفة كحنين الساقطات إلى الأمومة (22) ويمثل واقع المدينة المعذبـة إلى جانـب بركات زوجة بركات منيرة وهي امـرأة لا يهمهـا سـوى تحقيـق رغباتهـا، وإشـباع شبقها الملتهب.

فقد منحت نفسها لبركات في حياة زوجها السابق، ثم تزوجت بركـات بعـد وفاته وأورثت معها بركات القهوة التي كان يملكها (المرحوم) بعد دخول بركـات السجن منحت صبيه مثلما فعلت مع بركات في حياة زوجها السابق.. « ثـم منحتـه الشرف الذي منحته ذات ليلة إحدى الملكات لحرسها الخاص، غير أن حارس هذه السيدة لم يكن كحارس الملكة. فقد شعر بالندم و تأنيب الضمير » (23).

وجه

تُمثل «مُنيرة» الوجه الرديء للمدينة المعذبـة في الجنـة العـذراء. وقـد اسـتفاد المعلم بركات تجربة حية نقلها لأخته بهية القادمة من الريـف مـع نجلهـا "رضـا"، عندما التقيا معا بعد الهجرة قهرا؛« – بهية إذا قُتلت (لا تصـرخي .. اسـمعي مِنـي) فاشتغلي بأي عمل شريف ولو حملت القصارى في أي مستشفى. فـنحن في المدينـة. يطاردنا القانون ويحمينا القانون. أما في الريف.. ومن خلال ضحكة أكمل .. أنـت عارفة الباقي..» (24).

وإذا كان داخل الجنة العذراء متخلفا فكريا واجتماعيا واقتصاديا، معتمدا على القوة والسطوة والارهاب، فان الواقع الخـارجي الممثـل في الاحـتلال الانجليـزي أسهم في صياغة واقع رديء، مليء بأحزان لا حد لهـا، وجعـل مـن مصـــر ميـدانا لصراع استغلالي رهيب قاده الإنجليز ضد الشعب المصري الأعزل، وأشتد أزر هذا الصراع في خلال الحرب العالمية الثانية. وهو صراع ينـتج عنـه عـدد مـن الظـواهر الاجتماعية القلقة والسيئة في الفكر والمال، والمعتقد والسلوك « بدأت نقود الحـرب تملأ الأيدي و كثرت الهجرة من الريف إلى المدينة والناس يتحـدثون عـن الأخطـار والغنى المفاجئ في وقت واحد ، وبدا ميزان القيم والنقود يتخلخل.. » (25).

بيد أن أهم ظاهرة واضحة من ظواهر هذا الصـراع، كانـت في وجـود طبقـة حاكمة لا يهمها سوى ذاتها ومصالحهما أكثـر مـن أي شيء آخـر يسـمى الـوطن أو الشعب أو الأرض، وقد كانوا يمرحون في وديان الذات الضيقة والأنانية فضلا عن ممارسة الإرهاب والعذاب بكل صنوفهما ضد التململ الشـعبي، وتهـامس النـاس جميعا أن الانجليز سيدمرون منشآت العاصمة الجميلة قبـل أن يتركوهـا للألمـان، و تكلم الناس جميعا إلا حكام مصر . و بـات سـكان القـاهرة ذات ليلـة مـن صـيف 1943م. وهم متوقعون أن يستيقظوا على أحداث هائلة (26).

بيد أن هذا الجانب المعتم في حنايا الجنة العذراء لم يكـن فريـدا في موقعـه، أو مسيطرا في ظل المظهر الخـارجي عـلى مقـدرات الأمـور تمامـا. بـل كانـت هنالـك جذوات مشتعلة بالنور والأمل تبحث عـن طريـق لتجـاوز هـذا الظـلام الكثيـف ومحاولة تغيير الواقع المر الذي حول دعاة الحق والعدالة- مثل الأسـتاذ «البتـانوني» المحامي الى نصابين من الدرجة الأولى ومنتهزي فـرص ومواقـف، وتفـوح رائحـة السمسرة من مكاتبهم أكثر مما تفوح رائحة الجثث (27)

أخذت هذه الجذوات النيرة تشتعل رويدا رويدا حتى أتيحـت لهـا الظـروف الذاتية فتمخضت عن «رضا» وعم «جابر». إنها نـماذج مشـرقة للنضـال الـوطني والجهاد الإنساني ضد القهر الداخلي والخارجي معا..

مفارقة

كان «رضا» فتى زاده الشوق حنينا إلى رعاية أمه، ولقاء أبيه، لكنه للأسـف لم يعرف أباه إلا ذات ليلة أقامها حمودة ليتزوج امرأة ثانية مـن أسرة إقطاعيـة شـهيرة بالسطو والقوة. ولم يعرف "رضا" أحد في هذه الليلة الحافلة.. «فعده أهل العـريس من أهل العروسة، وعـده أهـل العروسـة مـن أهـل العـريس» (28) ،وهـذه قمـة المفارقات، بيد أنه يتحول بفعـل الزمـان ودورة الأيـام إلى رجـل يحـب ويضـحى،

ويعرف كيف يضحي ويقاوم. وقد دفعه القهر حيناً الى الانتقام. ولكـن « حمـودة » أخوه على أية حال رغم المحنة القائمة « الموت برصاصة مسددة أشرف مـن المـوت برصاصة طائشة.. جازاك الله يا حمودة » (29).

ولم يتوقف رضا عند حد بل كان في كفاحه العام من أجل الـوطن مـن أروع صور الجهاد عندما يتحـول الفـرد الى مـدافع عـن القضـايا العامـة في ذروة المحنـة الخاصة التي يتعرض لها وتحدد مصيره. فحين خطف الإنجليز «ثريـا» حبيبـة رضـا وجد نفسه مندفعا في طريق المقاومـة الوطنيـة والانتقـام لــ « ثريـا، الجنـة العـذراء ومصـر الحنون المحبة. يرفع قضيبا من الحديد ويهوى به على رأس جندي إنجليزي فيرديه قتيلا ... وهكذا «أصبح مفهوما أن بعض القضـايا لا يجـدي فيهـا القـول و حتى ولو كان بليغا. أصبح يحس بآلام غيره أكثر مـن قبـل. وشـعر أن الوجـود. لا يستغني عن شيء موجود لأن كل شيء له مهمة. واذن هو لم يخلـق اعتباطـا ولا أي من الناس» (30)، أما « حسن » هذا الفلاح الذي ارتدي لباس الجندية، وصهر تـه العسكرية يعود منها ليعمل سائقا لـدى « حمـودة » ويسـتوقد بنـار الحقـد المكظـوم ليضـيء في الظلامات القائمة ويصلى رب نعمته مزيدا من الإرهاب النفسي والقلق الوجداني.. ويظل مع الأحداث حتى تأتي الفرصة فيستكمل القيام بدوره جيداً مـع أنه دور ثانوي .

غريزة

ولكن دور عم "جابر "، سائق القطار الذي شجت جبهته مرتين في صراعـه مع الإنجليز فإنه من النماذج التـي تتصـرف بطريقـة طبيعيـة إزاء القهـر و تمـارس المقاومة بوحي من الغريزة الفطرية مع أنه لا يملك من الثقافة ما يؤهله لهـذا الـدور الشجاع.. ولكن الصراع ومواجهته يخلقان من الموت شيئا آخر بالضـرورة. ويمكن أن نجد تفسيرا طيبا لفكر عم جابر، في هذا الحوار :

" – هل تعرف نتيجة السكوت على الظلم؟

- قل لي .
- مثل السكوت على البلهارسيا (31).

إن النماذج المشرقة للبطولة الصامتة في ريفنا ومدننا قادرة على العطاء الأصيل عندما تتاح لها الفرصة للمقاومة. وقد صنعها محمد عبد الحليم عبد الله من خلال باطنها وعلاقاتها الإنسانية دون أن يهوى إلى درك الخطابية والهتافات المباشرة. لقد اعتمد على الاستبطان السيكولوجي والاجتماعي كما هو الحال في معظم أبطاله (راجع دراسة الأب مونو) فصنع نماذج قوية ومؤثرة في الدفاع عن الجنة العذراء.

وقد ساعده على بلورة هذه النماذج حبه الشديد كما أسلفناوقد قام بانتقائها انتقاء جيدا لأنه خبير بالريف وأهله. أليس واحدا منهم؟ ومن ثم فإننا نجده يتحدث عنهم بطلاقة عجيبة في حين كان حديثه عن «منيرة» رمز المدينة الخائنة حديثا عابرا وقاصرا. فهي امرأة تتقصع وتمضغ لبانة في حلقها، وتبحلق في المرآة لترى كم بدت من الزينة والتزويق. ولعله كان يحبس في داخله شيئا يشبه الموجدة على المدينة وأهلها، فجاءت شخصيات منيرة وبركات وأبناؤهما وأسرة عم جابر غير متكاملة، أو لم تأخذ حقها الكامل من النمو وممارسة الحياة الروائية كما أرادها. بل إننا لم نعرف مصير بعضهم (منيرة، وأم رضا بهية).

إن رؤية الفلاح المناضل في الجنة العذراء أضاف إلى تراث محمد عبد الحليم عبد الله قيمة أخرى يعتز بها الأدب العربي في زمننا عندما حول هذا الفلاح من مجرد رجل يصارع في حياته من أجل القوت اليومي إلى إنسان يتجاوز ذاته إلى الصراع الكبير من أجل الوطن كله ناسيا كل اهتمام ذاتي.. وهذا أفضل ما في جنتنا العذراء و «طيبة » الوقور

الهوامش:

(1) الجنة العذراء ، ص 137 .

(2) السابق، ص 44.

(3) نفسه، ص 82.

(4) سورة الفجر، الآية 14 .

(5) سورة القلم، الآية 45.

(6) سورة إبراهيم ،الآيتان 42،43

(7) ص 47 ، 48

(8) ص 20

(9) ص 21

(10) ص 82

(11) ص 42

(12) ص 9

(13) ص 10

(14) ص 61

(15) ص 53

(16) ص 103

(17) ص 80

(18) ص 31

(19) ص 71

(20) ص 74

(21) ص 37

(22) ص 58 و 59

(23) ص 56 و 57

(24) ص 67

(25) ص 109

(26) ص 201

(27) ص 164

(28) ص 88

(29) ص 135

(30) ص 212،213

(31) ص 138.

البطل يأتي في أوانه

يأتي البطل في أوانه عندما تشتد المحنة، ويحدق الخطر ، وتنخلع القلـوب مـن أر كانها هلعا، وتصعد بالخوف حتى تبلـغ الحلقـوم... وهـي سـاعة الخـلاص مـن الدنيا، أو خلاص الدنيا من بعض ساكنيها والمقيمين فيها. ولو أردنا أن نعلـل مـثلا كيف تخلى محمد عبد الحليم عبد الله عن طيبته ووداعته وغنائه الشـجي، إلى التحفـز والمقاومة والصراخ بأعلى صوته في الوادي المقدس، لأعدنا ذلك التحول الى طبيعـة الأوان تفرض على بعضهم ومنهم محمد عبد الحليم عبد الله أن يقوم بدور البطولـة ويؤديها رغما عنه، ولو لم يرغب في ذلك حقا. فقط عليـه أن يكـون مـؤهلا ومالكـا لمقوماتها.

وليس معنى ذلك أنه كان في مرحلة سابقة يحيا عـلى الهـامش أو يعطـى دون اكتراث للواقع المحيط، بل إنه بطيبته يرى الدنيا أكبر من إنسان واحد يعيش في بلـد واحد وقارة واحدة ، فأعطي ثماره وفكره وحياته للإنسان المطلق في أي مكان كان . هذا الانسان الذي يعيش وسط الآخرين متعلقا بهـم، ومتصـارعا معهـم، صـاعدا وهابطا صحيحا ومتمزقـا، ومسـتيقنا وحـائرا، تائهـا في ملكـوت الله وباحثـا عـن الحقيقة الخالدة. هذا الانسان أعطاه محمد عبد الحليم عبد الله عصارة فكره ومعظـم عطائه حتى كتب الراهب والفرنسـي والمستشـرق الـدومنيكاني «الأب جـوردان مونو»، يقولها صريحه :

«الإنسانية! هذه هي الصفة اللازمـة لمحمـد عبـدالحليم عبـدالله. إنـه رجـل يكتب للكائنات الحية. يكتب للبشر ليستزيدهم إنسانية» (1)

انتفاضة

بيد أن الهزيمة التي حطت فوف واقع الأمة العربية جعلته ينتفض على ذاته، ويخرج عن نطاق الغناء العذب والجميل الى شيء آخر ربما كان فيه بعض التأنيب والتقريع والتقويم .. لقد أصمته الهزيمة، وذهبت به في عز نضيجه إلى حيث لا عودة ! فقد فجع بما جري كما لم يفجع أحد! هذا الرجل الحساس الذي يذوب هوي وعشقا في أحضان هذه الأرض الحنون والجنة العذراء، لم يتصور أن الزمان سوف ينقلب على عقبيه. ليجعل الشر المعربد ينتصر في أرض الطيبة والصفاء والحقيقة الخالصة ، ولم يكن يتصور أن يضيع سُبع(1/ 7) الوطن مع ما لا بسه من مهانة وذل وهوان في غمضة عين أو ما يُشبه غمضة العين التي اصطلح الناس على تسميتها بالأيام الستة السوداء من يونيو حزيران 1967م ! ولم يكن يتصور شيئا من هذا والفارق شاسع بين نمطين من الناس نمط طيب ونمط رديء. ولكن واقع البشر في الجنة العذراء أثر فيه بعمق لقد رأى جهلهم يقف منتصبا على قدمين بلا خجل ولا حياء! ليس كذلك فقط، بل يزعم جهلهم الأعمى أنه هو القدر المستنير الذي يعطي هذا الوطن ما ينتظره من آمال وأحلام وأماني !!

كان عليه إذا أمام هذا الهوان الفاجع أن يقف بالصمت والدهشة قليلا، ينظر حواليه ثم يراجع نفسه، و يتأمل ما يجري أمامه نتاجا للهزيمة وسببا لها! لذا فقد رأى الناس في شارع الفلكي يجرون و يقفون لمشاهدة آثار حريق يتصاعد دخانه في السماء، ومياهه السوداء و على الأرض وتملأ الفضاء الممتد بعرض الشارع، وعمال البلدية يستخدمون مقشاتهم الطويلة يزيحون بها المياه المتخلفة بعد الحريق. وصاحب المكتبة السيد فكري يبكي زمانه وأيامه في صمت ويحترق قلبه مع مرور الزمن وقسوة التذكار: كيف احترقت حيوات ودنيا بأكملها؟ إن الكتب شيء آخر في اعتقاده. إنها حياة متجددة وأرواح تمارس لذة الحياة ، وشوق البقاء :

ولكنه لم يطق أن يتصور أن صفحة الكتاب قد أحرقت وأن إحدى الجثث الفكرية تدوسها العربات في الشارع.

نفي

وهز رأسه بطريقة لا إرادة فيها. هز رأسه ينفي ذلك؟! ولكن أنى له ذلك النفي، وقد تمثل في خياله أن هذا الخراب الاسود قد حدث فعلا وأن الحريق الضاري والجامح قد أطاح بكتبه التي هرستها العربات وأقدام الناس في قلب الشارع المليء بالمياه السوداء والطين؟ لقد وقع في خياله ما وقع .. وكأن محمد عبد الحليم عبد الله ينفي وقوع الهزيمة سلفا، لم يكن يتصور أن ينهدم البناء الجميل الذي أقيم بالعرق والكفاح والجهاد.. الواقع يقول بأن هنالك فرنا بجوار المكتبة، والفرن قد احترق لأن فيه نارا والنار أحرقت كل ما طالته بوهجها ودخانها. وقد أحرق الفرن محل الأزهار الموجود بجوار المكتبة، وتحولت الأزهار الى بقايا سوداء ورماد. ولكن السيد فكري ومكتبته لهما شأن آخر في الواقع «... عندما أز الباب الصاجي للمكتبة وألقي نظرة على داخلها أجهش بالبكاء. نظر الناس إلى الداخل ثم عادوا يتساءلون. ولِمَ يبكي هذا الرجل ما دام قد نجا من الحريق؟! لكنه سرعان ما عادت إليه طبيعته فصفق بمرح وهو يغتصب ضحكة ما لبثت أن انقادت له ليغيظهم .

. شكرا لكم تفضلوا .. فليس عندنا الا كتب وزيت خروع..

فرد عليه صوت ساخر :

- ✓ صدقت فقد حرق المهم . المهم ما في الفرن يا عم فكري •
- ✓ و نسيت ما هو أهم. محل الازهار الى جوارنا فقد حرق، وفيه الآن ما ينفع المعيز عندك .

صاح الرجل في وجهه :

- ✓ ماذا تقول ؟

فرد في فتور وهو ينصرف إلى الداخل :

- ✓ أقول إذا ما أكلت أنت ومعيزك، فماذا بقي لمثلك من هموم الحياة؟!
- ✓ آآآآ !! متى تعرف أنها كثيرة» (2) .

إدانة

إن وقوفه بالدهشة والصمت والحزن أمام الواقع المفاجئ الذي حدثت نتائجه بغتة وعلى غير انتظار كان إدانة صريحة وقاطعة لهذا الواقع.. ولم تكن الإدانة الصريحة والقاطعة خالية من الأسباب، وإنما هي إدانة على أساس من النظر العميق إلى ما وراء الظواهر الواقعة، فلا يهمه أن يكون الحريق وقع وأن الشارع مملوء بالطين الأسود يزيحه عمال البلدية، وإنما يهمه بالدرجة الأولى سر هذا الحريق. شرح المأساة شرحا موضوعيا خاليا من الانفعال. وأخذ يرسم الطريق من خلال المستقبل المنتظر والمأمول .

«نجا بعضنا واحترق البعض لكننا جميعا أحسسنا وقع النار على جلودنا» (3) .كلنا أحسسنا بالاحتراق ولهب النار يلسع جلودنا.. وقلوبنا أيضا! ولكن الكاتب لم يبالغ في تصوير القيامة القائمة، فقط فإن المأساة وقد شبهها تشبيها طريفة ورائعا كذلك :

«وأخذ الشاب في الجري حتى توقف في الميدان، وحملق في الناس الغادين والرائحين، وسار حتى محطة الترام. وهناك وقف يرقب الوجوه، فشعر أن مأساته عصرية، مثل مأساة الحامل أسقطها الزحام في عربة الأوتوبيس صباح هذا اليوم . فعبرت وجوه قليلة عن الألم، ولم تعبر وجوه كثيرة عن شيء، وضحك منها بعض الشبان، وبعد أن نزلت رموا لها بفردة حذائها من نافذة العربة» (4) .

مشهد طريف ورائع للغاية يرسم صورة المأساة التي حلت بنا وأخذت بأعماقنا وهزت في كياننا كل شيء ساكن ومتطامن.. امرأة حامل تسقط في العربة ويضحك عليها الناس! ثم زيادة في النكاية يرمون بفردة حذائها من النافذة! لكن .. لماذا هذا المشهد الحزين يجري فوق أرضنا وفي زمننا وفي جيلنا؟ ألا يكفي أن يكون

مظهر المأساة حريقا و لهبا و دخانا نقع تحت لفحة ولسعه وسواده؟ لا .. فالمأساة أعمق من ذلك كله.. لأنها حياتنا كلها. الحياة التي أفرغت من الداخل، وصفي أنضر ما فيها من فكر وإبداع وخلق وقيم بالغباء والصلافة والكسل. لعل مقارنة الحاضر بالماضي تجدي نفعا في تجاوز المأساة وتقويم هذا الواقع الفارغ أو المفرغ.. يتحدث السيد فكري صاحب المكتبة إلى ولده في دعابة وسخرية ومرارة:

- هل سمعت الأغنية الجديدة يا مؤرخ المستقبل ؟
- أي أغنية تقصد ؟

فقال مستغرقا في الضحك :

- – إن « لاقاكم ، حبيبي سلموا لي عليه.
- كان الابن في هذه اللحظة قد نهض إلى موعد..

تحسس الأب ابنه في حنان وهو يلقى بالمقطع الأول من الأغنية ويقول ممازحا :

- إنها من تأليف امرىء القيس الشاعر الجاهلي يعني الذي عاش في العصر الجاهلي والذي كان يحب اللحم جدا والنساء جدا والخمر جدا، كذلك الغناء، ولما بلغه أنهم قتلوا والده أراق النبيذ على الأرض فجرى في لون الدم ثم ذهب الى قيصر ليساعده في أخذ الثأر . ومشى يغني في الصحراء هو وصديقه والليل مظلم:
- إن «لاقاكم» حبيبى سلموا لي عليه (5)

***

تلك الوخزة التي يشكنا بها محمد عبد الحليم عبد الله في مناطق حساسة لعلنا نقلد امرأ القيس فنريق الخوف والبلادة وحب الذات. ثم نهتف مع امرئ القيس :

«اليوم خمر وغدا أمر ....»

فلا خلاص إلا بالانتفاض على الحياة الباردة والكسولة والمملة والميتة، ولا خلاص إلا أن تراق هذه الأشياء دما يجري غزيرا كالطوفان الكاسح.. « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون (6) » ولا يهم أن يكون القصاص فرديا أو على مستوى المجتمعات، فالمسألة تعني شيئا واحدا أن يتم القصاص بأي ثمن كان لحساب العدل والكرامة والحرية. عندئذ تكون لدينا حياة جديرة بالاحترام والبقاء.

وقد بدأت مرحلة الإدانة الصريحة والقاطعة لدى محمد عبد الحليم عبد الله عندما أخرج لنا في صمت ثائر روايته «للزمن بقية»، و كانت المشاعر أيامها تكاد تصل بالهوان إلى حد اليأس المستسلم والسكون المستخزي أو تصل باليأس إلى حد الهوان الكامل والشامل.. ولكنه وقف خلال المأساة واليأس والهوان ليعلن أن في الزمان بقية لمن يواصل الطريق..

ومن ثم أخذ برصد مع ذلك معالم الواقع المزري ، والذي يغصّ بالانتهازية والزيف والتسلط والقيم الرديئة. تساءل بسخرية:

« هل تعتقد أن حياة هذا العصر فيها ضمان؟

قل لي ، من هذا الذي سيعطيك الضمان ؟ .. فرد؟ لا.. مجموعة ؟ الدولة بحالتها الراهنة ؟ لا .. أنت نفسك قادر على أن تعطي نفسك الضمان؟ لا.. فليس شيء يضمن نفسه في الدنيا الا الذهب حين يتحول إلى : حب . أما اذا تحول الحب إلى ذهب ، فعلى الاثنين لعنة الله !» (7)

والضمان كما يراه المؤلف، ضرورة لازمة لكي يسترد الفرد ثقته بنفسه وقيمته كإنسان له حق المشاركة في المصير والمستقبل. ولكي يستكمل الفرد (شخصيته) عليه أن يسترد أجزاءها المنثورة، وفي سبيل هذه التجربة نلقى عذابا وعناء، وربما فقدنا الأجزاء التي تملكها في سبيل استرداد ما في يد غيرنا منها (8) .

هيكل

ويُركِّز محمد عبد الحليم عبد الله على الفرد بوصفه جزءا يتكون منه هيكل الوجود الإنساني العام في الوطن، هذا الفرد الذي تتنامى ذاته بالقيم المضيئة والمعاناة الخلاقة، لأن ذلك هو مناط النجاة، لتكوين وطن يجد فيه الفرد ذاته المفقودة، وترى فيه الجماعة هوّيتها الضائعة، ويمرح فيه الكل تحت ظلال الحرية الوارفة. ولكن الكاتب حين يعرض لنا صورة الفرد من خلال الجماعة لا ينسى أن يحدد المسئولية المتبادلة والعلاقة الجدلية بين تأثير الفرد على الجماعة وتأثير الأخيرة في الأول، والظروف التي تحدث فيها هذه العلاقة وتلك المسئولية.. وفي أقاصيصه التي ألفها بعد الهزيمة وخلال رصده للواقع العفن الذي مازال باقيا يطرح أنموذجا لهذه العلاقة وتلك المسئولية ويمثلها تاجر الأسلحة الذي يقيم في دمنهور والذي لا تزدهر تجارته إلا وقت المحنة التي يعانيها الناس من جراء صراعاتهم ومعاركهم،ويسعد هذا التاجر أن يشجع على إثارة الصراع وإشعال الفتنة لكي تستمر، ويدخلها محاربون جدد يحتاجون إلى سلاحه و بارووده. وهو آنئذ قد تخلى تماما عن الفكر والعاطفة والقيم جميعا ، وأصبح إيمانه يعتمد كليا على المادة بكل أبعادها الرديئة، وليس الطيبة، ومن ثم كانت المادة هي مؤشر حركته ومسار طريقه، مثله في ذلك مثل الذين يعتقدون أن حريق الفرن وما فيه أهم من حريق الكتب وما فيها من أفكار والحال كذلك بالنسبة للأزهار.. فهؤلاء الناس بائع السلاح والآخرون - نماذج بشرية لا تفهم بالعقل ما يجري حولها، وانما تتعامل مع الواقع الموضوعي وفقا لما تمليه الغريزة البيولوجية وتحكم به الطبيعة الحيوانية ليس غير.. والمجتمع الجاهل يستكين لما تحدثه هذه النماذج الرديئة ويرضخ لها!

نموذج

وعلى الطرف الآخر نجد نموذجا طيبا للتأثير الإنساني في المجتمع رغم إخفاقه وإحباطه وفشله .. ولعل «طه النجومي » في رواية "للزمن بقية" . وحمودة

في «الجنـة العـذراء» . مـن أبـرز الـنماذج المكتملـة في الدلالـة عـلى الجهـل الأحمـق والصلافة الغبية التي تتحرك بموازين الكم والحجم فقط، والتـي تجـد في مقـابلهما «صلاح النجومي» و «رضا» من أوضح الأمثلة على المقاومة المستمرة وسـط ظـلام الجهل والغباء والارهاب. والكاتب مع إيمانه بأن المقاومة في مثل هذا الظلام صعبة وقاسية ومؤذية أيضا إلا إنه يصل بنماذجه الفردية المقاومة إلى مرحلة من الرضا عن الألم الناتج والأسى في اقتناع المؤمن الذي يبذل عـن سـخاء، ويضـحى عـن رغبـة كامنة وهو مع نماذجه تلك يصل إلى مرحلة صوفية باستعذاب الألم وطلب الشهادة في سبيل إضاءة شمعة وسط الظلام حتى لو انطفأت هذه الشمعة بعدئذ، فـلا شيء يهم.. من يأت يواصل الطريق ويضيء كثيرا من الشموع في عـالم الظلـمات والمـوت مجانا.

وما أحسب إلحاحه على وصف هذا العالم، و تأمله . وتقليبه على كافة جوانبه إلا نتيجة المعاناة الصارخة والقاسية داخله. إذ إنه- بهذا العالم- خـلا مـن السـماحة والرحابة. وسادته شرعة الإرهاب. وملأته القلوب المصمتة (عـالم لـيس فيـه شيء يتنفس الا بطريقة النبات . هناك في الحقول حيث يتم تنفس النبات بلا صـوت تـتم كل الأعمال التي يريدها «طه النجومي»، فاذا ارتفع غناء مجموعة من الناس في حقل من الحقول كان معنى ذلك أنه «غائب». أمـا عالمـه عـن الحـب فهـو عـالم «الرغبـة فحسب.. وعالمه عن الناس فهو عالم الاسماك، وكان أول تلميذ في المنطقـة أعطـى كل كتبه لبائع خيزران وأخذ نظير الكتب خيزرانة مشي يضرب بها الهواء يـوم قـرر مقاطعة المدارس(!!) و نقل الخبر إلى أبيه فقهقه وقال: إنـه لم يعمـل أكثـر مـن أنـه استعجل، فهذا ما كنت أريده (9) .

خبر

وطالما أن هذا العالم لا يتنفس فيه شيء إلا بطريقة النبات فلا يمكن أن ينجب خيرا، ذلك أن المحاصرة تئد كل نفس يـتردد، يشـهق بالفرحـة أو يزفـر هـواء الألم

الفاسد: ويستطيع المرء أن يدرك مدى الضياع الـذي يلاقيـه كـل مـن تحدثـه نفسـه بالكلام أو التنفس الطبيعي.. (لا أتذكر هذا الاسم؛ وأنا لم أدرس هذا الكلام لكن عندي عنه خبرا، هو أن كـل الـذين تفلسـفوا ضـاعوا .. ضـاعوا..) (10) ٠ومـن المؤكد أن معظمنا يدرك مدى الارتباط الوثيق بـين الفلسـفة والضـياع في مفهومنـا ولغتنا وتناولنا وهذا ما يفسر أحيانا مـا يقولـه محمـد عبـد الحلـيم عبـد الله في شـبه استسلام حزين: (خذها ببساطة فكلنا بقر ساخط) (11) أو قوله: (علينا أن نتقبل المشاكل بصدر غير ضيق فان لكل مشكلة حلا، واذا ما صـادفتنا مشـكلة مـن غـير حل فعلينـا أن نقبلهـا أيضـا لأن طبيعتهـا هكـذا .. نـوع مـن الوجـود ذو جفـاف صحراوي) (12) ونحن لا يمكننا أن نظلم كاتبنا لمجـرد تلـك اللحظـات القاتمـة والتي يفيض فيها وجدانـه أسـى وحزنـا وألمـا لمـا يحـدث حوله،ويعـذّب النـاس، فالعذاب مشترك وفرض عين على الجميع.

وكانت تصل به الحال أحيانا- شأنه في ذلك شـأن أي انسـان حسـاس إلى أن تتكشف الدنيا سوادا أمام عينيه على المستويين الذاتي والاجتماعي فكان يجد في تلك العبارات البائسة الساخرة متنفسا عن هم مكبوت وغم مقيم!

بطولة

على أنه يتجاوز هذه الطفرات اليائسة والحزينـة ويواصـل تقدمـه في الميـدان إيجابيا مع الزمان كما ينبغي .. يمتطى صهوة جـواده ويـمارس البطولـة في أوانهـا .. فبينما نرى « صلاح النجومي » يتضاءل منهزما في أكثر المواقع فإننا نراه يجـدد نفسـه من جديد رغم كـل المعوقـات والمحبطـات وتكـاثر العوامـل الفاسـدة والعفنـة في المجتمع ، ويهتف في نهاية قصته : « مازال في الزمن بقية » ، ومادامـت هنالـك هـذه البقية فإن الفرص سوف تكون أكثر ملاءمة للكفاح وانتزاع الحق وإثبات الـذات.. وهكذا الحال في دموعه الخرساء فإنه يهتف بصراحة «الحرب تعديل مسار الحياة عن طريق الموت» (13)

وهو هتاف صادق كـان مقدمـة لما هتـف بـه بعدئـذ وبصـوت أكثـر علـوا وإفصاحا عـن المـوت وضرورتـه (14) . وإننـا محتـاجون إليـه في مصـــر بطريقـة رومانسية، وكما كان سيحدث للمسيح عليـه السـلام وشـاهده في ذلـك مـا يفعلـه المؤمنون «أتباع بوذا» على أرض الهند الصينية في هذا الزمان.

تفاؤل

ورغـم هـذا الشـوق إلى المـوت(الشـهادة)، الـذي كـان يبـدو مسـتحيلا في نظره،فانه كان يتفاءل ويجد في المستقبل الفرصة الضائعة والوقـت المهـدور لممارسـة الموت، ممارسة جادة ومجدية وبطولية، وان سبق هذا التفاؤل نوع من التأمل العميق نسبيا لتنوع المأساة وفي صورة رمزية أحيانا، وأخرى مباشرة في بعض الأحايين.

وقد ضمت مجموعته القصصية الأخيرة «جولييت فوق سطح القمر» ، هـذه الإرهاصات بصورة نابضة وحية وعميقة.

(في يوم واحد يجري هذا ؟ في أول النهار مات مهرج القصر، وفي آخر النهـار مات السياف . أليس هذا تحديا من القدر (و تأوه) ثم .. شهر زاد مريضة . مـا هـذا ؟! ضحكي وعقابي وحبي؟! (وتأوه) لكن ليس شيء من هذا قادرا على أن يغلبنـي فأنا «شهريار» الذي قهر أقوى قوة في العالم «الحب» !!) (15) .

مريضة

بهذا التصور الحي والنـابض كـان يـرى المأسـاة وتعقـدها، ويبصـــر المحنـة وجذورها، (إن المريضة ليست بخير، وليست بشر، كل شيء جائز .. فابتهل إلى الله، وانصرف الطبيب وأطرق الملك دامع العينين. وكان يقول في نفسه: « من الممكن أن أصلح الخطأ الذي وقع بشأن المهرج والسـياف، لكـن هـل مـن الممكـن أن أصـلح أخطاء القلوب) (16) . وتمضي نغمات الرمز الشفاف موحيـة بـما يعـج بـه الواقـع المظلم وما يختلج بداخله من عـذابات وأوهـام وصراخ. وفي قصـة أخـرى يعـزف

النغمة الحزينة الأسوانة بطريقة الغضب المكتوم والحانق.. إذ إنه لا يستطيع أن يمد لسانه إلى الخارج ليصرخ بالجهارة اللازمة والمفروضة، فإن قطع اللسان آنئذ أهون من قطع خيط رفيع! كما أنه من خلال الرمز يستطيع أن يعطى عمله الفني بعدا أكثر نضجا وأكثر تعبيرا عن المجموع الإنساني بأسره.. وكان بالضرورة يضع في حسبانه الإنسان مجردا عن انتساب أو انتماء . وهنا نستطيع أن نميز بين رمزيته الشفافة التي تألقت فنا وإنسانية ، وبين رمزية معتمة لا تبين ولا تكشف عن شعاع من نور! وبالطبع فان أصحاب الرمزية المعتمة عاجزون عجزا تاما ومتخلفون فنّا وفكرا، وساقطون بالطبع أيضا من حساب الانتماء لزمنهم وأمتهم!

أما محمد عبد الحليم عبد الله فقد استطاع أن يحترم ذاته من خلال الفهم العميق للإنسان وواجبه تجاهه ورغم القسوة الضارية في وأد الكلمات البكر إلا إنه لم يستطع الصمت، وأخذ يلف حول الدائرة المصمتة في أدب وسكينة لقول ما يعتقد ويعلن ما يبطن بطريقة ما: (الأكاذيب نبيذ جيد. خصوصا إذا ما عُتِقت في قبو مظلم، والذي روى هذه الحكاية يا مولاي لم يذكر شيئا عن جثتي الحبيبين لأنه يريد عنصرا غير ذلك. وذكر الخضرة والنخل والتين والحياة التي خُلقت من نبتة صغيرة هي الحب الذي آوي إلى قاع البئر لاجئا من مطاردة البغضاء) (17) .

بقعة

ونفس المعنى يتكرر بطريقة أخرى (إن أمينك أيها الملك قال صدقا، لكن بقعة من الكذب تسقط في مكان خفي على الصدق الموجه للملوك، وعلى حساب هذه البقعة تكون السعادة) (18) – ومع هذا فإن تفاؤله المرح والحزين يجعل الحقيقة مهيأة للظهور في ساعات العسرة (ولما تنفس الصبح الصعداء. واستدعى رجال العسس وأمرهم أمرا صريحا قاطعا. قال لهم : أنتم مكلفون بإحضار أصلح رجل أو امرأة في مملكتي ليستشارا في أمر نقصان الزرع وهلاك الضرع والا فسترفعون إلى السماء على صلبان من الخشب) (19) .

ولكنه في الآونة التي تلت الهزيمة وانضجت غضبه لم يمتثل لما يمليه عليه الرمز من وقار ولف مؤدب حول القضايا التي تؤرق وجدان الناس في هذا الوطن،بل أخذ من وقاره قدرة على الإقدام، ومن سكينته وتؤدته حركة مستقيمة للأمام تنزلق على قضبان متساوية الأبعاد فأخذ يهتف بالمقاومة ورفع السلاح، هنا مكمن الخلاص وموطن البطولة ومهبط الرجولة، وجعل المقاومين من أبناء الجنة العذراء الذين انفلقت كعوبهم من الحفاء على أرضها، ودميت أقدامهم من السير على أشواكها، و تشبعت أفئدتهم حبا لها وشوقا إليها وحزنا عليها. إنهم الفلاحون .. فلاح مصر الشاب الذي يعيش في العشرينيات اليوم ، ومن الممكن أن نعده نموذجا للفلاح المصري في الجد والتسامح وخفة الروح.. وعلاقة الفلاح بالأرض العذراء مثل «الحبيبة محتاجة دائما إلى الرعاية والسقي والإلحاح حتى إذا ما استجابت جاء دور العطاء وارتاح الحبيب» (20) .

فلاح

يُقدِّم لنا مُحمد عبد الحليم عبد الله شخصيه فلاح مصري في الثامنة والعشرين له قطعة من الأرض كانت مالحه أصلحها مع زوجته الشابة، وأخذ يزرعها، وتستجيب الأرض لصديقها الذي لا يغفل عنها فتسخو بالعطاء، وتظهر هذه الأسرة البسيطة التي لها طفلان كأغنية حب تمتزج فيها الأشياء: العمل والغناء والزوجان والأطفال والنجاح حتى تبدو هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي عاث فيها الملح سابقا وكأنها مدخل الجنة (21) .

يدخل عبد الباقي بطل القصة الجندية مرة أخرى ويتساءل الناس: هل استدعيت للجندية مرة أخرى يا عبد الباقي ؟ فرد قائلا: «انظروا .. هذه أشجار غرسناها، وهؤلاء أطفال ولدوا وكبروا، وهذه زوجة كأنها رجل، والأرض التي لم تكن ملكي أصبحت ملكي . فماذا تريدون بعد ذلك؟ تعالوا اشربوا معي الليلة شايا قبل أن أسافر ! تحية وداع» (22) . ثم يُبيّن الدور الكبير الملقى على عاتق من لم

يذهب إلى الميدان (اسمعوا علـيكم أن تسـقوها وتسـهروا عليهـا، فـإذا مـرّ عليهـا الوقت بسلام ولم تجف شجرة فثقوا أنني بخـير وسـأعود إلـيكم بالسـلامة. هـذه الأشجار هي.. أنا! مادامـت بخـير هنـا فسـأكون بخـير هنـاك. كـل يـوم غـذّوها واسقوها وحافظوا على خضرتها. هذا إذا كنتم تريدون أن أعـود الـيكم بالسـلامة. وهذه القُبلات لكم وللأشجار التي زرعناها معا) (23).

موّال

من خلال هذا التحفز والتوثب الذي يقفز من بين الكلمات كـان محمـد عبـد الحليم عبد الله يتفاعل مع حركة الأحداث على جبهة القتال، فواصل مواله، ويقدم لنا نموذج الفلاح المصري في سماحته وانتمائه للأرض وتضحيته من أجلها في صورة واقعيـة ومثاليـة في آن واحـد. وبعـد هـذا النمـوذج الـذي تـرك أرضـه وزوجـه وعياله،ينقلنا لنرى رجلا آخر يخوض غبار القتال ويتمرس به «لكـن ليلـة العبـور، عرفت وأنا كبير، كيف خاف الليل منا .. آه أيتها الشقيقة الغالية . كـل شيء يحـاول يكسب بالمحاولة حتى ما نظنه ثقيلا» (24).

صحيح أن صوت الكاتب يرتفع هاهنا أكثر من ذي قبل، ويتخطى ما يحتمـه الفن في تناول هذه الموضوعات، ويخضع لعاطفته ، ويستسـلم لانفعالاتـه الباطنـة، ولكن ما رأيكم لو التمسنا له العذر من أجل شيء واحد فقط و هـو هـول المصـيبة الواقعة الجاثمة فوق الصدور؟ ونحن لا يمكن أن نغض الطرف عن كلامه الجهـير عندما يخالف مقاييس الفن ويخرج عليه، لكننا سوف نقف عنـده لحظـات بالتأمـل على أقل تقدير عندما يحكي:

(لو كان في الحقيقة راضيا عن نفسه، وحقيقـة كـذلك أنـه شـعر بـأن الأفـق الشرقي أمامه عليه أشياء يجب أن نزول. الأفق الشرقي حيث يـرى الشـمس وهـي تشرق فيحس أنه مطالب بأن يجعل لابنه مكانا تحت هذه الشمس على أرض وطنه. حتى ولو كان هذا الابن لم يولد بعد. ولذلك كان يحس أن كل جسم غريـب أمامـه

إن هو إلا غصّة في حلقه. شعر بالظمأ ولو أن الماء قريب منه. فعرف أن الإنسان قد يظمأ لشيء غير الماء.

وكان في الليل حين يسود الجبهة هدوء أبكم، إن نطق صرخ، وإن استمر مزق العصب. في الليل في هذه الفترات كان يخيل إليه أنه يسمع بكاء مولود جديد لا يعرف من لغة الناس إلا البكاء أو الصمت أو الابتسام. ومن خلال هذا الصوت كان يستمد كل قوة عضلية أو نفسية، ويشعر أن الحياة الإنسانية ليست إلا حياة شخص تصب في حياة شخص أخر، وليست إلا خطوة إنسان تتصل بخطوة إنسان..) (25).

دموع

إن فرحه بالحياة التي تنبعث من خلال الحياة يملأ إحساسه يقينا زائدا بأن الحياة هي التي ستنتصر في النهاية وهي التي ستتغلب على عوامل العفن والفساد والغباء.. وقد يعني هنا بالحياة : الحياة الإنسانية الكريمة المنتعشة بالحرية والعدالة والرخاء، ولعلنا نرى فرحه ويقينه في دموعه الخرساء عندما رأى (.. حركات الأيدي وقسمات الوجوه تدل على أن موتى وأحياء قد بعثوا، وأن فرحة الهاتفين للأحياء أشد، لأن الموتى لم يبعثوا إلا بالأحياء، فهم الوسيلة الحقيقية لعودة الرءوس التي تركت خوذاتها ملقاة إلى جانبها بعد أن قضت نحبها) (26).

وأيضا فلعله يرى أن السيد فكري صاحب المكتبة ووالد أحمد فكري الطالب بقسم التاريخ أفضل الأمثلة على الحياة الناضجة والمعطاء . يقول أحمد فكري عن أبيه الذي يعده الكاتب النموذج الجيد الصالح الذي ينبغي أن تكون مفردات المجتمع منه (.. وأبي ليس حكيما ، ولكن نظرته إلى الحياة تُريحني، وهناك في حي القلعة- مع كل المشدودين إلى السواقي نسكن، ويعود الينا بعد الهزيع الأول من الليل وهو متعب. قلبه مليء بالحب، وساقاه مليئان بالألم .

وفلسفة أبي عجيبة. كان يقول لنا دائما: إذا كان سِرك مثل علانيتك فلا تخف أحدا) (27).

شيئان

يتبين لنا بوضوح أن اليقين الإسلامي الذي نما على نوره فكر محمد عبد الحليم عبد الله قد أوصله إلى الإيمان بشيئين ضرورين في نظره، أولهما «الحب»: الحب الإنساني بكل أبعاده الخيرة، وثانيهما العقيدة: العقيدة الواثقة بكل ما فيها من ثبات وصلابة واقتناع وقدرة على البذل، ومن ثم فهو يرى أن الاقتناع بلا عقيدة شيء آخر تماما يبتعد عن العقيدة، فضلا عن اليقين «ونصف الطلبة يتكلمون عن هذه الجماعة بحماسة واقتناع، والنصف الثاني مقتنع باقتناع النصف الأول.. وهو.. ذلك الشاب أحمد فكري ابن بائع الكتب يرى أن الاقتناع بالعدوى لا صلة له بالعقيدة» (28)

لا يُريد إذا أن يكون اقتناعا بالعدوى، ولا يُريد أن يكون يقينا خاليا من الحُب الإنساني بل هو يطالب و يلح دوما لكي تستحق الحياة لا بد أن تقيمها على الحب والعقيدة لكي تستحق هذا الوطن أو هذه الجنة العذراء التي يهددها المغول والتتر والوثنيون المعاصرون. وقد أعلن ذلك كما أسلفنا بكل صراحة ووضوح ويقين راسخ، ولا يخالجنا شك في أنه كان يرى أن الفقراء والبسطاء والمطحونين هم أصحاب اليقين، وهم الواصلون على الدرب حتى لو شاركوا البهائم والخيل في «الفول»: (زاحمناك في الفول .. لكن «شي» يا باشا). هذا ما يهتف به عربجي يقود حنطورا في مدينة دمنهور بعد أن أعلن الحصان «الباشا» نزقه وعصيانه وتمرده على المشي وشد الحنطور.. وهو هتاف فيه اعتراف سهل وبسيط وواضح بما وصل إليه الحال في هذا الزمان، وما يتطلبه مقتضى ـ الحال من كدّ وجد واجتهاد .. وكان محمد عبد الحليم عبد الله مراعيا لمقتضى ـ الحال والأوان فعبر في وضوح وسلاسة وعذوبة، عن القهر والمرارة والأسى، وصور الواقع وأحلامه بالنسبة للمستقبل .. ألم أقل لكم إن البطل يأتي في أوانه؟!

الهوامش:

(1) «قصة لم تتم» أخر ما ألفه محمد عبدالحليم عبد الله، ص 56 .

(2) من «الدموع الخرساء»، وقد نُشرت في مجلة الكتاب العراقية و كذا جريدة الأخبار المصرـية عـلى عددين.

(3) من الدموع الخرساء.

(4) المصدر السابق .

(5) المصدر نفسه.

(6) سورة البقرة: الآية 179 .

(7) للزمن بقية، ص 53 .

(8) للزمن بقية، ص 20 .

(9) للزمن بقية، ص 25 و 26

(10) الدموع الخرساء .

(11) للزمن بقية، ص .

(12) الدموع الخرساء.

(13) يعني مصطلح الحرب هنا ما تعنيه المقاومة في سبيل رد العدوان والثأر للهزيمة، وليس الحرب الشاملة، كما أنها ليست الحرب العدوانية التي تشنها بعض الدول للغزو والهيمنة مصحوبة بغرور القوة، وصلافة الغباء.

(14) تحدث عن ذلك في روايته التي لم تتم، وقد تناولتُها في فصل آخر «نشيد الوداع» .

(15) قصة «حصاد ليلة»، في « جولييت فوق سطح القمر » ص 9.

(16) المصدر السابق، ص 10.

(17) قصة فراش الأوهام، مجموعة « جولييت فوق سطح القمر »، ص 212 .

(18) المصدر السابق، ص 211 .

(19) المصدر نفسه، ص 219 .

(20) (قصة سأعود، جولييت فوق سطح القمر) ص 52 و 53.

(21) القصة السابقة.

(22) القصة السابقة، ص 57 .

(23) المصدر نفسه.

(24) قصة القلنسوة الصغيرة، « جولييت فوق سطح القمر » ، .. ص 16 .

(25) المصدر السابق ص 17 و 18.

(26) الدموع الخرساء.

(27) الدموع الخرساء.

(28) المصدر نفسه.

الأم .. والولد

في القرآن الكريم اكثر مِن أم وأكثر من ولـد، وأم اسـحاق ويعقـوب علـيهما السلام،وأم إسماعيل عليه السلام، وأم موسى عليه السلام، وأم يحيـى، وأم مـريم، ومريم أم المسيح عليهم السلام أجمعين. و كلهن بالطبيعـة أغـرقن أبنـاءهن بفـيض الحب وحنان الأمومة المتدفقة. لكننا سوف نقف عند أم «موسـى»، حيـث أوحـى اليها ربها بأن تقذف ابنها في اليم لكي يحيا ويعيش ولا يتمكن منه فرعون وجنـوده. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة القصص: الآية 7] (1) بيـد أن الأم التي يقدمها لنا محمد عبد الحليم عبد الله هذه المرة ألقت ابنها في يمِّ الحب القاتـل فقتلته، لأنها أرادت أن تعالج الزمان القـاسي فأحبـت ابنهـا حبـا قاسـيا كصـرامة السيف فأردته قتيلا في الحياة، وإن ظل حيا يمشي بين الناس و يسير في الأسواق كما يسيرون، ويركب المواصلات كما يركبون، ويأكل كـما يـأكلون. إن الفـرق بـين أم « موسى » نبي الله ورسوله، وبين أم « فؤاد»، بطل محمد عبد الحليم عبد الله في روايـة "من أجل ولدي" هو الفرق في درجة الحب. أم موسى أحبته حبا طبيعيا ومع هـذا الحب فقد أسلمته للنهر العريض في صندوق من الخشب وقلبها يتمـزق إربـا لأنهـا أدركت أن في ذلك الأمر خلاصه وحمايته. أما أم « فؤاد» بطلنا فلم تـذعن لأي أمـر وأطبقت عليه بكلتا يديها حتى ماتت وخلفته ميتا يتحرك بـين النـاس دون إرادة أو مستقبل . «.. حاولت أمي يقـول وربـما كـان عـن قصـد منهـا، أن تعـوق تـدفق الحوادث بكفها، وقد نجحت في ناحية وفشلت في ناحية. احتفظت بي لأنها تحبنـي، تم أحست أخيرا بالحسرة لأنها احتفظت بي..» (2)

أمهات

ولو حاولنا الآن أن نفسر سلوك الأم في الاحتفاظ بابنها لقرنا أن ذلك يرتبط ارتباطا ما بالواقع الراهن الذي تدور فيه الأحداث، و تتحرك فيه الشخصيات. ليس هذه الأم فقط، وإنما الأمهات الأخريات الموجودات في الرواية.. أم زينب، جليلة، بائعة الهوى.. وكذا بقية الشخصيات والد فؤاد والدكتور والزميل المصدور وزوج بدرية..

إن الكاتب ينتقل في هذه الرواية إلى الطبقة المستورة، لا هي فقيرة معدمة، ولا هي البرجوازية المتوسطة.. إنها تمضي دون أن تسأل، وتتكيف وفق ما يجود به الزمان. كما أنه يرحل بناكما في «الوشاح الأبيض» إلى المدينة بكل تفاعلاتها وضغطها، ولا نرى هنا أثر القرية أو الريف، على خلاف ما عودنا الكاتب، في قصصه التي تدور في الريف أو يأتي أبطالها من القرية، أو تسري بينهم روح القرية، أو ينتمون إلى القرية منذ زمن الطفولة البعيدة، أو ينتسبون إليها بحكم الأقارب والمعارف.

تدور حوادث القصة بين ضاحية حلوان وقلب القاهرة وشارع الهرم، وتبدأ بسرد أحداث يتحدث فيها الراوي بطل القصة عن أبيه وأسرته، ويتابع السرد حتى تنتهي أحداث القصة بخروجه من المولد بلا حمص، وشعوره كشعور الرجل الذي عضه الكلب هنالك دون الناس أجمعين .

يُركز الكاتب على الواقع الذي تجرى فيه أحداث القصة، ويُفسّر كما قدمناسلوك الشخصيات التي تتحرك فوقه، فأسرة البطل « فؤاد » أسرة صغيرة يقودها موظف صغير، يتمنى أن ينجب أولادا، ولكن القدر يقف بالمرصاد. ومن العجيب أن هذا الموظف يعمل في قيد المواليد يوميا! «.. وفي كل يوم أجلس على مكتب الحكومة لأؤدي عملي الغريب. إثبات المواليد في دفتر المواليد..» (3) . ومع هذا الشوق الجارف ليعيش له ولد واحد، فإنه يسمع كثيرا من التهكمات التي تأتي

من أقرانه، وهو يعاقر معهم الخمر. وتلح عليه المشكلة عندما يعود إلى داره آخر الليل فيناقش المسألة مع زوجته كالعادة..

مشكلة

« هذا مُضحك حقا .. إن المشكلة كما ترين راجعة للقدر. أليس كذلك يا سيدتي؟ حدأة تخطف كتاكيت!! لعنة الله عليك يا «بكر» كم أتمنى أن يعش لي ولد واحد لأرد عليه اتهاماته.. إنه يؤكد على أن البذور بطبعها غير جيدة. ويقسم أن أطفاله يستحمون في الحارة بماء المطر المتخلف ويعيدون نحت قشر البطيخ الذي يلقى من النوافذ بعد أن يلتقطوه من الأرض. وأن أردافهم تبيت عارية طول الليل بلا لباس ولا لحاف ومع ذلك.. هأ .. هأ .. هأ. لم تستطع الحدأة أن تخطف منهم كتكوتا.. (4) وفي غمرة هذا الواقع الذي يستحم فيه أطفال الفقراء بماء المطر المتخلف وينحتون قشر البطيخ ربما يأكلونه والنوم عرايا في العراء، وبعد أن يلجأ الرجل وزوجه الى التنجيم و نذر النذور وقطع العهود: يأتي لهم ولد ثم آخر وآخر ويصبح الرجل وزوجه عائلة فيها ولد وبنات، و يحتاجون إلى مزيد من الطعام والكساء .. فقد تحقق الشوق الجارف الى الولد، ثم انقلب الى حزن غامض تجاه الالتزامات التي فرضها الواقع.. والأب يحاول أن يثوب عن معاقرة الخمر، ولكن دون جدوى، يمسك المسبحة أياما، ويعود مبكرا إلى داره ، ويرتل الأوراد، ويُقيم الصلوات ولا يلبث بعد هذا الجهاد أن ينكفئ راجعا إلى دنه و حانه وسماره. «رجعت ريمة لعادتها القديمة . وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا.. » (5).

صبر

قد تفسر استسلام الأب للخمر بالهروب من المسئوليات المتكاثفة والمتزايدة يوما بعد يوم. بيد أن الأم رغم كراهيتها لسلوك الأب المشين مازالت تواجه الأب التعيس والزمن القاسي بصبر وحياد يذكرنا بأم الحسنين في "بداية ونهاية" الأستاذ

نجيب محفوظ وقد شبهها يومئذ بألمانيا تستفيد من كل الـدول، وإن كانـت أم فـؤاد تؤثر السلامة.. وأمي تعمل الإبرة في الجورب في حياد امرأة تلمس القضية من بعيد حتى لا يدركها الأذى.. (6).كان صراع الأب غير متكافئ مع نفسه، و كان صراع الأم رهيبا مع حظها وواقعها.. وكان نتاج هذين الصـــراعين بطلنـا « فـؤاد .. وإذا كانت رصاصة الرحمة قد أعفت الأب من الدوران في دوامة المأساة ، فإنها ضـنت على الأم المحايدة، وتركتها لتنطلق أسدا كاسرا في حبه وتمسكه بـ «فؤاد»

«.. ليس في الدنيا أم مزورة . قوة الأمومة في أنها من المحال أن يتسرب إليهـا الشك.

أنا أمك ضروري، لكن.. بعد وفاة أبيك أحسست أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك ..» (7) ولهذا السبب فإن قسوتها كانت غير محتملة عـلى الاطـلاق: « إنها امرأة عجيبة مليئة بالتناقض . يحملني حنانها على أن أريق في سبيلها دمـي وتحملنـي قسوتها على التفكير في الانتحار.. وكله موت..» (8) •

حنان

لقد سار فؤاد في حياته انطلاقا من هذا الحنان القاسي، وقد نستطيع أن نفسـر هذا الحنان القاسي أحيانا ، بأنه نوع من التملك القائم على التعويض .. فقد فقـدت الأم زوجها، ولا يزال في العمر بقايا شباب، لابد للأرملة مـن رجـل.. أي رجـل. وكان رجلها هو ولـدها الـذي أنشـأته وفـق مقاييسـها هـي.. فتحـرك بـلا إرادة . وانسابت مواقفه الحياتية بلا إرادة.

«أرتني أمي أن الصداقة نهب، وأن الغرام خداع، وأن العلاقات بـين النـاس تنسجها منافع ظاهرة و خافية..» (9) •

وهكذا كان موقفه مع بائعة الهوى التي قابلها لأول مرة في حياته. وموقفه مع الست جليلة التي ألجأته الضرورة للاقتراض منها بالربـا، وموقفـه مـع زينـب وأم زينب التي جمعت بينه وبينهما الجيرة والظروف ..

أراد أن يثبت ذاته ووجوده في المجتمع، فدخل إلى منزل بائعة الهوى، ورأى مخدعها عبارة عن مشرحة وأبريق ومغسلة والعجين الأحمر يغطى شفتيها.. وبدافع خفي ترك هذا العالم وهرب! وعيّره زميله في الصباح بموقفه. ولكن الفارق بين هذا المشهد والمشهد الآخر في ثلاثية «نجيب محفوظ» أن « كمال عبد الجواد» عاد إلى المكان نفسه، أما فؤاد فلم يعد إليه أبدا (10) . وإن مارس الحب بطريقة أخرى مع الست جليلة.

وعندما ألحت عليه الضرورة، واضطر للاستدانة من أجل أمه ذهب إلى شارع الهرم والتقى بالست جليلة، ومن خلال العلاقة المالية تحول إلى عاشق مستهام يمارس العشق كما شاءت الظروف وشاء الهوى !!

أما زينب وأمها فقد أملا أن يحصلا عليه، ولكن أمه وقفت له ولهما بالمرصاد، فحرمته أن يعبر عن عواطفه، وقطعت علاقته بهما كرها وقسرا.

سخرية

و يُلخص « فؤاد» ، هذه التجارب في تصوير مأسوي فريد:

«امرأة تبيع الهوى في صدر شبابى فلم أستطع أن أشترى منها و شيعتني ليلتئذ إلى الباب بسخرية مريرة. وفتاة قريبة العهد كانت تريد أن تهبني الحب فلم أستطع أن أمد يدي اليها . فودعتني باحتقار ورضيت بزواج كانت تعده تعاسة. وامرأة كنت عندها منذ ساعات قلائل ضممتُها بخيالي ألف مرة وهي تمشي أمامي ثم عدت من عندها بحزن مبهم..»(11)

وبالطبع فان مواقفه مع هذه النماذج النسائية قد خلقت لديه نوعا من الشبق الثائر والخيال الجنسي المشوش:

"- إذن ما الذي يحدث لإنسان ينقصه الحب ؟

ووقفت عند هذه القضية وتذكرت أنني مسكين، يحز الحرمان في إحساسي كأنه مبرَدٌ يأكل شيئا هشا. أنسى نفسي على محطة السكة الحديد أو غيرها بالثلث ساعة لأراقب أرداف النساء حين تبتلع الثوب الخفيف من هبة الهواء. أو أرسل نظراتي من فتحة الصدر لأرى الخندق الأبيض، و خيالات الجنس مشوبة بالخزعبلات دائما..» (12) .

حصار

إننا حين نحاصر من نحب، ونفرض عليه قيودا من صنع ذاتنا وأفكارنا، فإننا نحطمه بلا شك، وقد حطمت « فؤاد » تصرفات أمه. إنه مطالب في كل حين أن يقدم كشف حساب عن ذهابه وغيابه، وحركته وسكونه.. سوف أشفق عليه بالضرورة حين نعلم:

«ولكنني لم أكن أحمل تصريحا بالزيارة. وضحكت من أنفي. هل من الضروري أن يحمل الرجال التصاريح؟ وشتمت ناسا كثيرين في سرى، أنت تعرف بعضهم. لماذا لا أذهب إلى حيث أشاء؟ ولماذا أقدم تفسيراً لكل عمل، و تقريرا عن كل وقت؟

كنتُ معبأ بطاقة شريرة ينبغي لها أن تفرغ. وهذه الطاقة يجب أن يفسح لها الطريق بشكل ما. فسرت أسرع الخطى إلى هناك..»(13).

ونحن معه فيما يذهب إليه. وكونه مُعبأ بطاقة شريرة ينبغي لها أن تفرغ، أمر مفروغ منه ، ولكن محمد عبد الحليم عبد الله يرجع ما حدث كله إلى الخوف، ويعتبر الخوف مسئولا عن كل ما حدث. «حاولت أن أحدد نقطة المسئولية. النقطة الحقيقية التي تدور حولها مأساة حياتنا التي تنمو كأنها نبات متحجر، فلم أر مسئولا عن ذلك كله إلا الخوف. أنا خائف من أمي وخائف عليها، وأمي تبادلني نفس الشعور» (14).

لم يقل لنا صراحة، مُحمد عبد الحليم عبـد الله مـن الـذي صـنع هـذا الخـوف وأنشأه، وجعل بطلنا يتحرك موتوراً خائفا يحكم تصرفاته، الجنس بل الشبق الثـائر. ولكننا سوف نرفض سلوك هذه الأم بالضرورة، مهما كانت مبررات حبها وحـدبها وحنانها. ولعل صورة الأم المثاليـة كـما يرسـمها مُحمـد عبـد الحلـيم عبـد الله أكثـر وضوحا عندما خاطب أمه الحقيقية:

« أمي العزيزة.. كلما تقدم بي العمر يا أمي.. ورأيت حوادث وعشت تجارب ثم رجعت بذاكرتي إلى رأيك في الـدنيا، زدت احترامـا لـك وحبـا فيـك. كنـت لا تملكين في الوقت الذي علمتني فيه، سوى القلب والأمل وصورة غير واضحة عن مستقبل الدنيا لأنك كنت تعيشين وراء الأبواب في القريـة، وعـلى الـرغم مـن كـل ذلك نجحت في أن أودعت في ابنك الأكبر وهو أنا- طاقة في تحمل العبء .

علمتني حب الفقراء، لأننا منهم ، على شرط ان يكـون الحـب دواء ناجمـا لا جرعة مسكنة، وعلى شرط أن أنجح في أن أعمل ما يعجز عنه أولاد الأغنياء وعـلى شرط ألا أركب الحصان وأترك أخي يجري ورائي .

بل ان نتقاسم الفرصة واللقمة والمكسب.. وعشت معك يا اماه زهرة شـبابي كله، فرأيتك مثالا لإنكار الذات.. فتعلمت منـك أن الواجـب أن نصـنع الجميـل، ونتصرف كمن يزرع شجرة على الطريق العام.

يامن سهرت علينا . بال ما ملكت من نـور العـين و نـور المـد و نـور الأمـل واليقين . انني مدين لك بأكثر من حياتي ، وفي عيد الأم . أجعل هذه الكلمـة زهـرة أو سعف نخلة أضمها على مقبرتك في القرية مع فيض من رحمة الله ..» (15) .

حيرة

لو انتصب فؤاد حيا، وسمع هذا الكلام يقوله رجل في أمه، لأمات نفسه من جديد، أنه لم يجد مثل هذه الأم، ولم ير ذلك النور في القلب والعين يضيء حياته ويكفيـه شر الظلمات والتخبط في دياجيرهـا، ولا يعـرف للاسـتقرار والراحـة وممارسـة الحيـاة

طبيعية وخصبة طعما. لقد ماتت أم « فؤاد » وتركته: مترددا حائرا ساقطا من دفتر الحياة!

سوف نجد نوعا آخر من الأمهات يحركهن حب التملك حرصا على المستقبل،يتمثل ذلك النوع في «أم زينب» التي نافست أم «فؤاد» على امتلاكه،وتقدم ابنتها زوجا له .. ولكن «فؤاد» وصل بملابسات الزمان و ظروفه مع أمه إلى حالة من انعدام الرؤية .. فضحى «بزينب» وأمها جميعا، مع ميل الفتاة إليه واستعدادها للعطاء. ولكن بطلنا وقع بين نارين «صرامة السيف (أمه) ولين الأفعى (أم زينب) (16) و تنتمي زينب و أمها بالضرورة إلى ذات الطبقة التي ليست مُعدمة، وليست متوسطة أيضا. (17)، وتُعدّ الست «جليلة» وهي أم لأولاد أيضا؛ رمزا لما يحدثه الفقر وينتجه التخلف. فهي خليفة بيت كثير العيال، وتزوجت عجوزا غير كريم، وأنجبت منه ثم ترملت.. إنها الأرملة الثانية زيادة في الأسى ولم تملك بعدئذ إلا أن تعمل ممرضة لدى طبيب عجوز كان له في زمن الصبا حب ضاع مع زهرة الشباب. فأوصى لها ببعض ميراثه، و بعد أن مضي إلى رحاب الله، لم تملك الست «جليلة»، إلا أن تمارس لعبة محرمة: الربا .. لقد قسا عليها الفقر والجمال الذي كانت على حظ منه، حتى تحولت إلى حطام :

« إن الجمال والحاجه أسوأ شيئين تقف بينهما امرأة. والجميلة المحتاجة يعطيها الناس باسم الرحمة ليأخذوا باسم الفتنة حتى يحولوها إلى حطام» (18).

محرومة

وعندما تعرفت إلى «فؤاد» أو تعرف إليها «فؤاد» كان لهما قصة حب توجاه بممارسة المتعة الجنسية.. محرومة وجدت شَبِقا. ويحلل الأستاذ مُحمد عبد الحليم عبد الله سلوك هذه المرأة وما وصلت إليه قائلا: « أما حالتها في هذا اليوم فقد كانت حالة المرأة حين تصل إلى (قرار) معين رضيت عنه هي نفسها بصرف النظر عن

كلام الناس. وفي هذه الأحوال تلبس المرأة ثوبين في وقت واحد ثوب النمرة التي لا تُغلب، و ثوب الهرة التي تريد الدفء. فتبدو غالبة مغلوبة، وقاهرة مقهورة» (19).

يبدو لي أننا يجب أن نتوقف قليلا لندرك مهارة الكاتب وقدرته على التصوير والإبداع فهو هنا يمزج بين منهجين؛ منهج التحليل الاجتماعي و منهج التحليل النفسي، فعندما أوضح سطوة الفقر، أبان عن نفسية المرأة التي تلعب دورين في وقت واحد: الغالب والمغلوب معا، أو النمرة والهرة على السواء.

وفي اعتقادي أن تلك رؤية متقدمة للمنهج الواقعي، فضلا عن كونها تنفي ما ألصق بالكاتب ظلما وغباء أنه « رومانتيكي النزعة» دائما، ولا يجد سوى الرومانتيكية مع «ما للرومانتيكية» بمفهومها الصحيح وليس الشائع من دور عظيم في إثراء الفكر والأدب إبان نشأتها وحتى وقت قريب، وربما في المستقبل أيضا.

المرأة الرابعة وهي بائعة الهوى التي شيعت «فؤاد » بسخرية مريرة لأنه لم يستطع أن يشتري منها الهوى. وهي شخصية تظهر في معظم الروايات والأقاصيص على المستوى القومي والمستوى العالمي. وسوف يكون ظهورها هناكما هنالك لظروف مشتركة ترجع في أغلبها إلى الوضع الاجتماعي السيئ أو التربية الرديئة، فضلا عن التخلف الاجتماعي والفراغ الروحي . ولعل هذا ما دفع بالكاتب أن يقول: «إن الحياة في ذاتها قسوة لأنها مذعورة من الموت وإن لم نشعر بذلك، فكيف إذا تسلحت بالقسوة» (20) ويُكرر المعنى نفسه في إيجاز وصراحة «ظروفنا تُغير من أخلاقنا» (21) إنها إدانة للمجتمع بطريق غير مباشر، بل إدانة لكل الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع، على أساس أنهم يتحملون المسئولية في كل ما يحدث ويجرى!

حالات

لقد قصد مُحمد عبد الحليم عبد الله أن يرسم في هـذه الروايـة أربـع حـالات للمرأة: أُما وصديقة وحبيبة وعشيقة. فضلا عن تصور الحب العائلي من خلال هذه المرأة الأم، ولكنه بلا شك أضاف إلى ذلك نماذج أخرى من الشخصيات التي نلتقي بها في المجتمع ومن الطبقة المهمومـة ذاتهـا، كـما أنـه أضـاف موضـوعا آخـر أشـبه بموضوع محاضرة نظرية أو حوار فكري وهو موضوع العقيدة.

فقد أضاف إلى شخصية الأم- المرأة والولـد- شخصـيات أخـرى.. شـقيقتا فؤاد بدرية وسميرة الأولى زُفت لمن كانت ستُزف إليه سميرة وهذه عاجلتها المنية في أوج فرحتها وتركت عفشها لأختها التي أثَّثت به بيتا وأنجبت فيه أولادا وبنـات.. وهذا زوجها الذي يعمل مدرسا وهـو أنمـوذج للإنسـان الـذي يهـبط إلى الأنانيـة بمعناهـا الكامـل.. فكـل همـه الأكـل والنـوم.. ثـم لا مبـالاة عميقـة ازاء الواقـع والأحداث.. إنه رمز للسماجة، في أحط صورها.

هنالك أيضا شخصـية- فهمـي- ذلـك الزميـل المصـدور نتيجـة لانحلالـه الجنسي وينتهي نهاية تراجيديه تذكرنا إلى حد ما بنهاية «رشدي عـاكف» في «خـان الخليلي» (22) الذي مات بداء الصدر في جو مشحون بالحزن!

اشتباك

أما موضوع العقيدة فإنه يتضح من خـلال المحاولـة التـي كـان يبـذلها والـد «فؤاد» عندما أراد أن يقلع عن «السُّكْر» وإدمان الخمر . «كان مشتبكا مـع نفسـه في عراك غير متكافئ، يريد أن ينقى دمه من الكحول، وأن يفصل نفسه عـن ذكريـات أعوام طويلة. وأن يعتاد شيئا فشيئا على أن « يرى الليل وهو وحيد» كما كان يقول : ولما سأله بعض الناس عن معنى ذلك . أكد أن ذلك شيء لا يحسه إلا الذين جربوه فحسب، فالمريض والسكير والعاشق يصعب جدا علـيهم أن يقـابلوا الليـل وجهـا

لوجه دون أن يكون معهم أحد (23) . وهذا « الأحد»، قد يكون الكأس، وقد يكون شيئا آخر. ولكن مع غير هؤلاء (المريض والسكير والعاشق) فإنهم لا يحتاجون إلى أكثر من مبدأ أو عقيدة يعتقدونها .. وهذا لا يكون- دائما إلا على مستوى الأسوياء من البشر.. اسمع: العقيدة يا بُني لا تقاوم وقد يصعب عليك زرعها، لكن اقتلاعها أصعب (24) . ومن أجل العقيدة والمبادئ فـ «إن المبادئ تكلفنا كثيرا» (25) .

خرافة

ويتصل بجانب العقيدة ما يسود في أوساط هذه البيئة المهمومة و المثقلة بخرافات قد لا تمت إلى الواقع ولكنها تعزّيهم أحيانا عن قسوته وجبروته. ولعل الكاتب هنا قد ركز على «الأحلام»، وتأثيرها في أكثر من موضع لاتصالها بجانب العقيدة "أبات و أصبح فأرى موقعا «خربا»(26).

إنَّ أم «فؤاد»، تعزي نفسها بالأحلام وغالبا ما تكون أحلام يقظة مختلفةعندما مات زوجها، وعندما بدا لهم أن لابد من ترميم المنزل الذي تسكنه الأسرة.. فعندما مات الرجل وأقسمت أمي أنها رأت روعة ملائكية بيضاء ترفرف على فراشه وأعلنت أنها تعرف ماضيه ولكنها تعرف ماذا رأت (27) !! وقبل أن يموت «رأت في منامها أن الشجرة الكبيرة القائمة في زاوية الحديقة كسحتها في إحدى الليالي ريح آتية من الجبل، ورأت مرة أخرى أن الكلب الرابض تحت شجرة الخروع ينظر إلى إنسان لم تتبين شكله وهو خارج من الباب الحديدي وكأن دموعا تسيل من زاويتي عيني الكلب وعواء مكتوما يتردد في فمه» (28) .

إن الأحلام تمثل هنا نوعا من الفضفضة العقدية التي تعجز عن مواجهة الأحداث فترى وتفسر دون أن يعنيها كم يؤثر هذا السلوك الفكري على سير الزمان، أو يغير من مجريات الأمور، وقد نجح الكاتب في أن يضعه كصورة من صور التفكير المتغلغل في أعماق المخ المصري منذ الأزل، دون أن يتعرض في الوقت

نفسه لما يمكن أن يراه ذوو العقائد الصحيحة من رؤى ليست في الواقع أضغاث أحلام كما هي الحال لدى أم «فؤاد». أهم ما يُميز مُحمد عبد الحليم عبد الله في هذه المرحلة و كل مرحلة باستثناء المرحلة الأخيرة «للزمن بقية القصة التي لم تتم بعض القصص القصيرة في «جولييت» أنه كان ناقدا جادا للوضع الاجتماعي والتخلف السائد ربما دون أن يدرى فقد ركز بصورة واضحة وبسيطة على ما تعانيه الطبقة المهمومة في المدينة المصرية وعالج قضاياها في بساطة ووضوح أيضا.

عربة

رأي فقرها المدقع، ورأى فقرها المحترم (الذي تمثله الطبقة المهمومة)، وعالج السلوك الذي يحكم أفرادها ويتصرفون وفقه وعلى هديه. وحاول أن يتطرق إلى عقائدهم وأفكارهم الداخلية وأشجانهم الخاصية، ودوافعهم الجنسية والفكرية أيضا ومحاولاتهم للتطلع وتجاوز الواقع ثم الإحباط الذي يصابون به ويعانون منه،ولعل الموقف التالي لفؤاد يعبر أصدق تعبير عن هذا الاحباط:

«ولما تذكرت الست جليلة وهجرها الذي قد يكون أبديا ورأيت قرب نهاية أمي أحسست كأنني في عربه يجرها فرسان استطاعت كل واحدة منهما أن تتحرر من رباطها وتجري في اتجاه وبقيت أنا حيث كنت جالسا في العربة المتوقفة وحيدا أنظر حائرا مذهولا إلى كل فرس مرة» (29) ويبدو أن هذه الطبقة المهمومة تركب دائما عربة متوقفة بلا أحصنة! ولعل النهاية الحسنة أو المقبولة نسبيا تكون كنهاية ذلك الطبيب العجوز جريح الفؤاد الذي ظل أعزب حتى النهاية . وأوصى ببعض ميراثه للست جليلة الأنموذج الذي صنعته «الجمال والحاجة» .

إننا بلا شك أمام قضية تطرح علينا ذلك التساؤل الذي ألقاه "فؤاد" في معمعة الحيرة .. فماذا لو تخلصنا من غير الصالح في حياتنا كلها؟» (30)ولكن أنّى له ولنا ذلك؟؟ سؤال في مواجهة سؤال.

***

الهوامش:

(1) سورة القصص، الآية 7 .

(2) من أجل ولدي ص 219

(3) من أجل ولدي ص 8

.(4) من أجل ولدي ص 7.

(5) السابق، ص 31 .

(6) نفسه ،ص 39 .

(7) نفسه، ص 55 .

(8) نفسه، ص 59 .

(9) نفسه، ص 47 .

(10) انظر صفحتي 62 و 63 من الرواية . ويمكن مراجعة المشهد في الجزء الثاني من الثلاثية «قصر الشوق»

(11) من أجل ولدى، ص 37

(12) من أجل ولدي، ص 121 .

(13) من أجل ولدي ص 78

(14) من أجل ولدي، ص 136 .

(15) كلمة ألقاها في عيد الأم ووجدناها بين أوراقه الخاصة.

(16) الرواية، ص 87 .

(17) من الأفضل أن نُسمى هذه الطبقة «بالطبقة المهمومة» ، فقد كتب عليها أن تعيش بين صراع الاكتفاء بما يأتي، والرضا بالواقع، و بين ما تحلم به من وضع أفضل رغم قصورها الذاتي والمادي والأعباء الجمة.

(18) الرواية ، ص 176 .

(19) الرواية، ص 172 .

(20) الرواية، ص 111 .

(21) الرواية، ص 122 .

(22) «خان الخليلى» رواية نجيب محفوظ

(23) من أجل ولدى، ص 26 .

(24) من أجل ولدي ص 20 و 21

(25) من أجل ولدي ص 26

(26) من أجل ولدى ص 27 .

(27) من أجل ولدي ص 44 .

(28) من أجل ولدى ص 43 .

(29) من أجل ولدى ص 211 .

(30) من أجل ولدي ص 132.

جذور شجرة اللبلاب

يصعب على الواحد منا وهو يتتبع أثرا من آثار محمد عبد الحليم عبد الله رحمه الله أن يتناسى ما حل به من جراء الموقف النقدي الذي اتخذه معظم النقاد المصريين منه، لأن ذلك قد أثر عليه بصورة معينة، وخلف جرحا مُزمنا يسيل كلما نكأته الذكرى أو لمسه التذكار. وإن كان هذا الموقف يدين النقد المعاصر فإنه من غير شك يدين الحياة الأدبية كلها في أيامنا لأن النقد جزء منها، وهو فوق ذلك حواسها المرهفة البصر والسمع والنطق واللمس والذوق . ولكني لا أود الاستطراد في هذه القضية فقد عالجتها في مكان آخر . ويعنيني هنا أن أناقش فكرة سرت في عقول البعض وهو أن عبد الحليم عبد الله آخر الرومانتيكيين.

وأقول في البدء إن الرومانتيكية ليست عيبا كما يظن بعد الأدعياء وقصار النظر فالرومانتيكية مذهب له أصوله وله قيمته الفنية ويعالج قضايا معينة تجد في إطار الرومانتيكية مجالا مناسبا وروحا طيبة ، وفي ظني أنها تغزو كتابات معظم الأدباء بصورة ما سواء في الرؤية أو الصياغة.

وبعد ذلك فإن تنصيب محمد عبد الحليم عبد الله في عداد الرومانتيكية أمر لا يتناسب مع الحقيقة النقدية، ولا يعطى مدلولا نقديا صادقا، وكتب محمد عبد الحليم عبدالله، التي تشتمل على القصص الطويلة والقصيرة تنفي أن يكون رومانتيكيا فقط فقد عبرمن بدء حياته الأدبية حتى وفاته عن اتجاهات شتى بأساليب مختلفة، ونستطيع القول إنه بدأ بالرومانتيكية ممزوجة بالواقعية كما في قصته « لقيطة» ، منتمياً إلى الكلاسيكيين ثم عبر إلى القصة النفسية «شجرة اللبلاب» ليُعالج بعدئذ ما يمكن أن نسميه بالمثالية الصوفية في «الباحث عن الحقيقة» ، وتأتي قصته الأخيرة «للزمن بقية»، لتحدث انقلابا جذرياً في تناوله

للموضوعات المختلفة وتدخله الواقعية الصرفة أو شبه الصرفة، لأنه لم يتخل تماما عن أسلوبه القديم في المعالجة. وان كانت للزمن بقية تتخذ من الزمن القديم رموزا و نماذج فان قصته التي كان يكتبها قبل وفاته ضمت شخوصا من الواقع الراهن والمعيش بعد عام 1967م كما حكي لي ذلك بنفسه.

أفق

الواقع أن محمد عبد الحليم عبد الله كان ذا أفق إنساني رحب، ولم يكن محدود النظرة.. فقد غنى لكل القيم النبيلة والمثل الطبية في حياة الإنسان، ووازن بين الخير والشر، وأعطى كأس النصر للخيّرين دواما انطلاقا من ثقافة إنسانية متكاملة يبرز فيها الروح الاسلامي بكل عطاءاته الخصبة وهي ثقافة تقوم على الإيمان الكامل بالله إيمانا يتجاوز كل ما هو ذاتي أو عنصري إلى كل ما هو اجتماعي و إنساني، وأعتقد أن الأب «جوردان مونو»، قد أصاب الحقيقة حين قال عنه «الإنسانية! هذه هي الصفة اللازمة لمحمد عبدالحليم عبدالله إنه رجل يكتب للكائنات الحية ويكتب للبشر ليستزيدهم إنسانية. وعند بلوغه الخمسين أصبح كاتبا في أوج إنتاجه.. غير أنه في رأينا- لم يعط بعد كل ما نرتقبه من أصالة في الموهبة وكل ما نأمل من قلمه المغموس في الخبرة». (1)

إنسانية

ولا أظن الأب الفرنسي قد تعدى الحقيقة حين وصفه بالإنسانية وبأنه كاتب الكائنات الحية والبشر.. لقد طرق عبد الحليم موضوع الحب وغيره من العواطف الإنسانية وتناولها بإحساس طاهر نزاع الى السمو والترقي، ولم يهبط بهذه العواطف الى مرتبة حيوانية ابتزازية كما فعل بعضهم وفشلوا! ومن ثم تستطع العثور على المثالية الواقعية إن صح التركيب وكان استغراقه لقضايا الإنسان وهمومه عاملا مهما

لتخليد فنه وأدبه بعيدا عن المحنة التي مر بها من جراء الصمت الذي فرضه النقاد الذين يتصدرون الساحة الثقافية.

وحين نتسلق ببصرنا «شجرة اللبلاب» أو نمسك طرفها الطري الغض لنتأملها و ندقق النظر في أغصانها وأوراقها فإننا نجد محمد عبد الحليم عبد الله يقدم الإنسان هذه المرة من الداخل. أو من العمق الذي لا يراه إلا صاحبه.. ويبدو لي أن هناك علاقة ما بين «شجرة اللبلاب» و «السراب» لـ نجيب محفوظ و «سارة» لـ عباس محمود العقاد مع الفارق الموضوعي والأسلوبي بالطبع. ونحن لا نستطيع أن نغفل أن تصرفات البطل «حسني»، كانت نتيجة للماضي الذي ينبعث في أغلب المواقف. يقول له حسنى لا تثق في المرأة فأنا «أم ربيع» زوجة أبيك التي اندمجت مع ابن عمها محفوظ في قبلة طويلة .. أو أنا المرأة التي كانت تمشي مع عمك « غانم» الذي ترك أم زوجته وأولاده ومضى معي على هذا الطريق الذي شاهدتنا ندب عليه..

وسوسة

ولنقرأ أفكار حسني.. «وتظهر لي فجأة ومن بين الزحام زوجة أبي وهي تنظر بعينيها المكورتين، فتمشى عقارب الحقد على شغاف قلبي وأتمنى أن يكون هناك امرأة على القرب مني. لأحكمها لا لأحبها، ولأتحكم فها لا لأدللها، ولأنتقم من جنس أم ربيع في شخص هذه التي تعرض في طريقي» (2)، إن الشك والوسوسة والتردد قد ربطت بين الأبطال الثلاثة في كل من السراب وساره وشجرة اللبلاب .. فنجد أن « كامل رؤوبة لاظ» بطل السراب مصاب بالشك والتردد و عدم القدرة على الاندماج مع الآخرين نتيجة التربية غير الطبيعية: أب فاسد، وأرملة لا تملك إلا أن تدلله وتعطيه كل ما تملك خوفا عليه من الهواء الساكن، و حسني بطل شجرة اللبلاب ينشأ في رعاية «أب»، كانت المرأة هي البيت العامر في حياته الخراب(3) وكان كذلك- قاسيا ولا يمكن تعليل قسوته إلا بقسوة الناس عليه(4)، ثم زوجة

أب شابة تمتلك من عوامل القسوة الكثير أيضـا.. إن «همّـام» بطـل «سـارة» كـان شكاكا من نوع آخر يمكن تسميته بالشك الإيجابي الذي ينتج عن الوفـاء ولكنـه لا يقبل الهزيمة مهما كانت المبررات.. إنه شك الكرامة حـين تحـس أن المهانـة مصـوبة إليها فلا تقبل الأمر الواقع بسهولة.. إن أبطالنا الثلاثة يتحركون انطلاقا من باعث داخلي وحافز مختبئ.. ولذلك كان العقاد أول من قدم القصة النفسية في مصر ومـن بعده جاء نجيب و محمد عبد الحليم عبد الله ليتجاوزا النفسية الذاتيـة العاطفيـة إلى نطاق أرحب تدل فيه الذات على المجتمع.. أو هي شريحة من واقع مليء بالكثير من الشرائح والأنماط.

ناظر

إن البطل في «شجرة اللـبلاب» كـان نتاجـا المجتمـع يعـانى ويـئن بالدرجـة الاولى، و كان ثمرة لحياة أسرة تعد صور مصغرة من هذا المجتمع مـع إنهـا في نظـر الكثيرين من أبناء الريف أسرة ذات يسـار و تحيـا في بحبوحـة.. أتـدري في أي فئـة يصنفون ناظر مدرسة ابتدائية؟ و لو كنت فلاحا وعشت حياة البؤس مثلي لابد وأن تعده في أعلى طبقة، أو في الليلة التي على أصـحاب المنـازل التـي تسـمى بيوتـا ولا تسمى دورا، و لعل ما أصاب زوجـة الأب الفقـير حـين تزوجـت نـاظر المدرسـة تعطينا أكبر الدلالة على ذلك،

"... كانت أشبه بالظمآن بشرب الماء المثلوج فلا يزداد ظمؤه إلا ظمـأ ولعـل التربة الجديبة التي خرجت منها الى خصب نـوعي كانـت العلـة الأولى فـيما نابهـا» (5)واذا كان حرمان الأغلبية سائدا فإن بطلنا لم ينج منه، ولعـل ذلـك كـان تـأثيره كبيرا إلى مجموع العوامل الأخرى التي أسهمت في استنبات الشك ورعايتـه.. لقـد كان حرمانا إجباريا في وجود يسار الأب النسبي. وقد فرضته زوجة أبيه «أم ربيع» على البطل لأنه كان شريكا غير مرغوب فيه.. ومن هنا كان لابد للبطل وهو صغير أن يبذل حياءه وتعففه من أجل أن يشبع حاجته من الطعـام والحنـان المفقـودين. «

فكنت كلما عضني التشهي وعجزت عن مقاومة نفسى العـزوف وقلبـي المتهافـت قطعـت الطريـق مـن دار تـا إلى هنـا (بيـت خالتـه) يـدفعني الجـوع ويمسـكني الحياء،(6).وهكذا فإننا نعيش مع تبرير نفسى لكل تصرف مـن تصـرفات البطـل ولكل سلوك يسلكه بدءا من الطفولة حتى الـزمن الـذي أصـبح فيـه رجـلا يقـدم الأشياء ويفسرها بل ويفلسفها في أحيان كثيرة.

عطف

ويبدو لي أن بطل عبد الحليم عبد الله كان إيجابيا مـع المجتمـع بـالرغم مـن افتقـار الرعاية اللازمة والحنان المفروض وذلك على العكس من بطل نجيب محفـوظ الـذي كـان سلبيا إلى آخر مدى نرجسيا إلى حد كبير. بـالرغم مـن وجـود الرعايـة بـأكثر مـن الـلازم والحنان الفياض. ويفسر بطل عبد الحليم اندماجه في المجتمع وحرصـه عـلى الصـداقات بأنه ناشئ عن افتقاد العطف، وانعزال الأب عـن النـاس وعـدم الـتلاؤم معهـم. «كنـت أتذكر دائما سخط أبي عـلى أصـدقائه وقولـه كـأن مهمتـه في الحيـاة أن يكتشـف خيانـات أصدقائه له،. فأثر هذا في تأثيرا عكسيا كالذي فزع من أن يـرث عـن أبيـه مـرض السـكر فجعل نفسه دائما تحت مراقبة الطبيب، ووجدتني حريصا على ما أكسب من صداقات كـما كنت في صغري حريصا على محبة أندادي في ملاعب القرية ، وأنا الآن أشد الناس اعتـزازا بصداقة (راشد).(7). أما لماذا كان حريصا على محبة أنـداده في القريـة فكـان ناشـئا عـن السبب ذاته بطريقة مباشرة وأحسب أن هندسة الكاتب في البنـاء القصصي ـ كانـت رائعـة ودقيقه وهو يترجم :« وهبنـي غبـت عـن المنـزل عشـرين سـاعة مـن أربـع وعشـرين دارناأتظن أن أحدا يطلبني؟ لا تظنن ذلك فإنني كنت كالشق الأعلى مـن الرحـا إذ بـدور على غير هدى، يدور دورانا متخبطا،فإنه ليس لى أم !!» (8) و مـن ثـم كـان اندفاعـه إلى الآخرين وهو صبي غير محدود حتى لو تمارض أو سـهر أو تمنـى علـة مهلكـة «ألفـت أن أشكو المرض فلا يقول لي أحد لا بأس، وأن أعاني الأرق فلا يسامر ني انسان. وكم تمنيـت في هذه السن أمنية عجيبة مضحكة في وقت واحد هي أن تشتد لى علة مـن العلـل أشرف

معها على الهلاك لأرى و جه آبي يتدفق بالحنان ولو مرة، ووجه أم ربيع يجـود بالرثـاء ولـو مرة» !! (9)

مرض

إنه بطل مرسوم بدقة هندسية متناهية، وقد كنتُ أتوقع لهـذا البطـل الفاقـد للحنان والرعاية أن يندفع إلى هاوية الانحراف فيكون إنسانا آخر . يغـاير الطبيعـة، يخالفها، و يتحدى المجتمع بتجاوز قيمه ومثله ولا يلقى اليها بالا.. بل إن الكاتـب بدافع من الإحساس أو التشبع بالروح الديني فيما أظن، وتلك ميزة في أدبه قد كفاه شر الانحراف، وإن كان الشك والتردد وعدم الالتقاء مع الطبيعة نحـو المـرأة، قـد أصابته بمرض أضاع عليه الكثير بل آذاه وأصابه في الصميم ، إن الأقدار تفننـت في إيذائه حتى كادت تخلق منه لصا لكثرة ما حرمته، أو تخلق منه مجرما لقلة مـا عـرف من حنان، أو تخلق منه غبيا أمام من يبصره بأغلاطه. كادت تخلق منه أحد هؤلاء أو هؤلاء جميعا، لولا أن الأقدار التي قلبت به الزورق هي نفسها من ان يـر نبـه وهـو مقلوب.. فنجا وإن لاقى في سبيل. النجـاة هـولا وشـدة! (10) ألم أقـل لـك إنهـا هندسة فنية مُحكمة؟

قد يقول قائل إن هذا البطل الذي صنعه محمد عبد الحليم عبـد الله لا يمكـن توفره في المجتمع. لأن إنسانا محروما مثله، لابد وأن ينحرف، ولا أعرف مدى تأثير المعترضين بعلم النفس والعلة والمعلول.. ولكنني أجزم بـأن هنـاك أمثلـة كثـيرة في ريفنا المصري جمعت إلى الحرمان، الذكاء والنبوغ واستواء الشخصية.. ولعلى أكثـر ايمانا بالرؤية الدينية في تفسير ذلك.. ومن غير شك فـإن هنـاك إيمانـا إسـلاميا بـأن ارادة الله أكبر من كل ما نريد ونحب. وتستطيع أن تحول بالقدرة مخلوقاتها إلى درب معاكس لا نتوقعه، فتضفي الحنان على المحرومين وتشمل بالرعاية المفقودين.

تعويض

إن نشأة البطل كان يحكمها عامل التعويض الذاتي، فبالرغم من ظروفه السيئة التي حكمت نشأته في مطلع الصبا فإنه كان متفوقا على أقرانه، وكان حريصا على المواظبة في الدراسة بالإضافة إلى حرصه على الأصدقاء كما قدمنا.. وأعطته هذه النشأة تفاعلا ممتازا مع الآخرين أو مع المجتمع عموما.. ولكن التعويض خانه في مجال المرأة.. فأصيب بخسارة كبيرة وهزيمة مريرة حيالها.. لم يصدق في واحدة ولم يعطها ما يمنحه الرجل للمرأة أو ما يسيّر الانسان على درب الطبيعة. فكان شكاكا مترددا. كان قلبه يعترف بالطبيعة وحقوق الإنسان على نفسه في أن تكون له امرأة.. ولكن الماضي البعيد كان يبين له فجأة فينسى كل ما يميل إليه القلب أو يركن إليه.. كان في داخله يحب ويتمنى، ولكن صورة أم ربيع تقفز من بين الزحام فتجعله يتوارى عن المرأة ويبتعد.. يبتعد.. حتى زوجة عم غانم أو أم فوزية التي رعته أول عهده بالمدينة لم تنج من الاتهام «وهكذا دخلت أم فوزية في نطاق المتهمات عندي وإن لم أجرب عليها شيئا، لأنني مرضت بالتشكك»(11)، مع أنه وضعها في الميزان حين وصوله.. « وأخذت أوازن بينها وبين أم ربيع فلم أجد في نطاقها « محفوظا جديدا، كأني كنت في ذلك الحين أتخيل أن وراء كل زوج رجلا غريبا يتوارى خلف جدار أو ستار، وانطبعت نفسي بهذا الطابع السيئ إلى حد أنني كنت أتفرس وجوه زوارهم من الرجال بعين قلقه مستريبة» (12).لقد انبعث في نفسه صراع نفسي لا يرحم أشعلته ام ربيع من الصبا حتى إنه لا يفيق من نشوة الحب مع «زينب» التي أعطته قلبها بكل إخلاص وتفان ..

«وأؤكد لك أنني لم أفق من نشوتي إلا على وجه أم ربيع و نحن في القرية» (13)إن ظل أم ربيع يتتبعه بسرعه في نومه وصحوه، ومشيه و توقفه، وأكله وعمله،ويضطرم داخله بما فعلته دواما وهذا ما يجعله يتردد أو يتراجع حين وجب عليه أن يتقدم، و كان عليه أن يفسر كل موقف تقفه منه الحبيبة بأنه ذو مغزى، و

مغزاه لا يخرج عن نطاق مؤامرة تنصب شباكهاحوله «ولكن شيطان الشك كان بارعا جدا فسوّل لى أن احتمالها الأذى داخل في نطاق المؤامرة، وإنه إن جاز على هذا كنت مخدوعا مثل أبي » (14) .

مقابلة

لقد أعطته الحبيبة كل ما يجب على المحب في سبيل المحبوب، وهو لم يقابل هذا بشيء يدل على مقابلة الحب بالحب بل كان يُنكر عليها إخلاصها وتفانيها: «كان داخلي مشحونا بصور الخيانة فما كان ينبغي أن تدللني!» (15)وتسبب البطل في موقفه هذا بأن احتمل إثما كبيرا لأنه تسبب بموقفه السلبي في أن تنتحر الفتاة ثم توسد التراب. وهكذا خسر خسرانا.

ونتساءل: من المسئول عن هذا؟ هل هو البطل حقيقة؟ أم الظروف التي نشأ في ظلالها؟ لقد نشأ حسنى ورأى أباه الشيخ يتزوج فتاة لا تتناسب مع سنه ووقاره،وغلبته على أمره وسلبت ما بقي من خضرة عمره ونضرة أيامه، ولما لم ينطفئ ظمؤها كان لها في غيره (محفوظ) شبعا وريّا .. فالشباب يروى الشباب. ومن ثم كان موقف الصبى (حسني) منذ هذه اللحظة مشحونا بالكثير عن المرأة،وكان اعتقاده الذي لم يفارقه أنهن جميعا خائنات.. فلماذا يأمن إلى فتاته «زينب»؟ و لماذا لا يعلل كل تصرف من تصرفاتها بأنه مؤامرة كما قدمنا ؟

إن مُحمد عبد الحليم عبد الله كان أصبح ناضجا جدا حين جعل من قصه حب رومانتيكية أو مأساوية بمعنى أقرب إلى الصحة، نتيجة منطقية لظروف نفسية واجتماعية عايشها البطل بكل جوارحه وكيانه، وانغمس فيها. وشرب حتى الثمالة.. شرب اليأس وثمالة الحزن.

وليس من شك أن هذه الرواية ذات أفق رحب يتجاوز نطاق الذات إلى نطاق عام وشامل.. نطاق إنساني، فهذه المأساة التي حدثت لبطلنا الشاب «حسني» في كثير من الأسر المصرية بل والعربية على صعيد العالم العربي كله.. والمعاناة من

زوجة الأب وتصرفات الأب غير السويّ مازالت تحوي عددا لا يُستهان به، ولكن مُحمد عبد الحليم عبد الله من خلال هـذا الموضـوع يعـبّر عـن علاقـة الإنسـان مـع الآخرين، وتصرف الانسان إزاء ما يعترضه، هكذا فعل في كل رواياته التـي تتسـم بالإنسانية كما قال «الأب جوردان مونو» والذي أوردنا نصا من آرائه من قبل. إنهـا علاقة المرء بمن حوله من أناس أخرين ومـا ينشـأ عـن تعاملـه معهـم مـن قضـايا ومشكلات تتصل بالصميم لا بما هو عرضي وخارجي دون.. تجد ذلك في «لقيطة» و «بعد الغروب» و«شمس الخريف» و «البيت الصامت»، وغيرها بنسب تتفـاوت من الرحابة والشمول.

ثعبان

ويبدو لي أن الرجل كان يقصد من وراء هذه النماذج التي ضمنها قصصه ورواياتـه إلى إدانة الواقع الذي بدا الكتابة وهو يعايشه وإن لم يقل ذلك صراحـة، بـل طـرح نـماذج تتعايش وتتصارع وتشق طريقها، ويكتفي بهذا دون أن يتـدخل أو يصرـح بـما يريـد. وفي الحوار التالي في (شجرة اللبلاب) نلمح أثرا لذلك وإن كان يغلفه شيء يشبه الرمز أو هو الرمز الصريح إن صح التعبير:

- ألست معي في أنه شيء يرثي له ! وقال ولم تفارق الابتسامة وجهة المشرق:
- وكيف أيها الصديق؟
- كل منهما (يُشير إلى عاشقين كانا يتناجيان) لم يفهم معنـى الحـق ولا الحريـة ولـذلك أساء استعمالهما..
- أفكار مدهشة، ولكن أهذا هو كل ما في الأمر؟.
- أراهما غير منسجمين..

فضحك قائلا:

- هل تتحدث عن الجزئيات، أم تتحدث عن المجموع؟
- لا الجزئيات منسجمة ولا المجموع منسجم.
- أنت على حق، لقد رأيتهما من قرب.

هو أشبه بالثعبان الأرقط، وهي أشبه شيء بالدبة، لذلك أرى من المصلحة العامة أن أفرق بينهما.. أجل المصلحة العامة يا صديقي! كما تردم حفرة في طريق المارة. (16)من هو الثعبان الأرقط، ومن هي شبيهة الدبة؟ قد يكون لذلك مغزاه في زمنه وأيامه . ويعنينا أن مُحمد عبد الحليم عبد الله لم يكن بعيدا عن واقعه ولم يكن رومانتيكيا يُغني للعشاق في غفلة من الزمان.. بل كان روائيا واعيا فاهما لكل الجزئيات والمجموع، واستطاع أن يعبر عما يريده من خلال إطارات ونماذج فريدة متميزة فيها الجدة والابتكار والأصالة، متخذا من الإنسان قضية ووسيلة وغاية، أعني الإنسان البسيط المكافح من أجل الحياة ومن أجل أخيه الإنسان ولعل هذا ما دفع الأب (جوردان مونو) أن يصفه بالإنسانية.. ويجعله روائيا (للدلتا).

***

الهوامش

(1) مجلة المجلة القاهرية ، عدد مايو 1970م، ص 47
(2) ص 85 و 86
(3) ص 14
(4) ص 7
(5) ص 19
(6) ص 21
(7) ص 81
(8) ص 36
(9) ص 38
(10) ص 4
(11) ص 66
(12) ص 55
(13) ص 136
(14) ص 150
(15) ص 148
(16) ص 82 و 83

الباحث عن الحقيقة

"شعر أن المشقات أعظم الأبـواب التـي تـؤدي إلى الله، وأن الـذين يعـانون المشقة في دنياهم محسوبون على الله في آخرتهم،..".

"وماذا يضير ما دمتُ في الطريق إليه. إن المملوك لا يملـك مـرتين في وقـت واحد ونفسي ملك الله، فهي في طلاقة الأفق وحرية النسيم.. و ماذا يفعلون بجسم رقيق؟ لست أدري في هذا تناقضا يا ربي.. آه أين أنت يا عابد (عمورية) لتقـول لي رأيك؟ لست أرى تناقضا من أن أخدم عبدا أو أعبد إلها ما دمت يـا ربي قـد كتبـت على أن أبكي في الطريق إليك".

من الذي يقول هذا الكلام؟ إنه الباحث عن الحقيقة.. سلمان الفـارسي رضي الله عنه كما تمثله محمد عبد الحليم عبد الله في روايته التاريخية عنه، التي تمثل انعكاسا جديدا للصورة المعروفة المألوفة لعبد الحلـيم عبـد الله. فقـد كـان قاصـا لحكايـات الريف بكل ما يعجّ به من آلام وأحلام، وكان فيها راويا لمصـر وعاداتها وتقاليدها، وراسما لخطوط صورتها القديمة والحاضرة .. وأحيانا القادمة، ومُحمد عبـد الحلـيم عبد الله في قصصه كاتبٌ فريد من طراز خاص، ليس تابعـا للآخـرين، ولا صـورة منقولة عن غيره، فاحتفظ بطابعه الخاص، ونكهته المتميزة، وهو وإن تجاهله النقـد، و تآمر عليه كثير من النقاد بالصمت عن أعماله الكثيرة، فإنه يظل شـامخا سـامقا، لا يخضع لعوامل المصادرة ولا يتأثر بها، وذلك لأن في أدبـه أصـالة، وفي فنـه ابتكـاراً، والأصالة والابتكار من اللوازم الضرورية للأديب الفنان في كل عصرٍ وأوان.

مزيج

واتجاه عبدالحليم عبدالله إلى دنيا الرواية التاريخية الدينيـة غـير مفـاجئ لمـن عرفه في قصصه السابقة فهي كلها مزيج من الكلاسيكية التي تعتمد الحق كأسـاس

متين تقوم عليه وتُنفّر من الرذائل. وتوجب محاربتها بكل الوسائل والطـرق، وهـو بالإضافة إلى الكلاسيكية ينغمس في الرومانتيكية كطالب للمثل الأعلى، والبطولـة النــادرة والأبطــال الأفــذاذ وهــو بعــد ذلــك واقعــي يُعــرّي الواقــع المرئــي ويكشفه،ويفضح الزيف في أسلوب فريد.

ونحن حين نضع "الباحث عن الحقيقة" على أساس المقارنة والاتجـاه، نجـد أن الباحث عن الحقيقة امتداد لما سبق بل هو نوع من التكامل وصل إليه مُحمد عبـد الحليم عبدالله، ليستلهم عبق الماضي، في أسلوب أدبي رفيع. وفي رأينا أن الاسـتلهام لا يتعارض مع ما نهدف إليه من إخصـاب الأدب العـربي وبعـث لحياتـه، والـذين ينادون بالواقعية نقول لهم إن استلهام التاريخ لا ينفي الواقعيـة، ولا يلغيهـا، لأنـه واقع متجدد يتراءى في كل مكان وكل حين.. ولا يتبدد

بمرور الأزمنة وتغيرّ الأمكنة.. فهو قطعة من وجدان كل عـربي، ينـبض بهـا قلبه، ويختلج بها صدره خاصة وأنه ماض يتصل بالعقيدة، وعلى أية حال فإن ذلـك الماضي يصبح واقعا بل مستقبلا إذا استقبلته يد الأديب الفنان ثم صاغته في قالـب أدبي بديع..

عطر

والواقع أن الباحث عن الحقيقـة أو سـلمان الفـارسي .. فتحـت بابـا جديـدا لــلأدب العــربي المعــاصر أو أعــادت فتحــه ليجــرب فيــه الأدبــاء المعــاصرون موهبتهم،ويظهرون من خلاله براعتهم، وينسابون مع عطر السيرة النبوية، وأريـج الشهرة الأدبية أيضا. فقد أدرك الدكتور طه حسين من عطـر السـيرة النبويـة ثلاثـة أجزاء من كتابه «على هامش السيرة» عمقت شهرته، ورسَّخت وجوده الروحـي في قلوب كثير من المسلمين. ومُحمد عبد الحليم عبد الله أثبـت بروايتـه أنـه قـادر عـلى التجديد و قادر على العطاء.. وأن عطاءه ليس بسيطا أو سطحيا أو سـاذجا، ولكنـه عطاء كبير وعميق وذكي.. يُصوِّر بالكلمة الشفافة أو الصورة الواضـحة، والتعبـير

الرائق الأصيل، والتشبيه الذي لم يأخذه عن سابق أو معاصر، وإنما هو مبتكر مبدع،ويساعده على ذلك إنتاجه الدؤوب الصامت بلا كلمة عالية أو ضجه صاخبة، ولكنه في صمت يعمل، وفي سكون ينتج دون أن يخشى من عالم بلا إنصاف ودنيا بغير عدالة. وهو ما يُوجب علينا أن نُقدِّره وننظر إلى أدبه نظرة فاحصة موضوعية لنوفيه حقه، ونعطيه نصيبه كما اقتسم غيره واستوفي؟

إنهم يقولون دائما أن عبد الحليم عبد الله هو كاتب الريف، ونجيب محفوظ هو كاتب المدينة، كل منهما اختص بجزء من الوطن يحلله ويدرس مآسيه وأحلامه، ويشترك معه في رحلة العمر..

جوهر

فهل حصل مُحمد عبد الحليم عبد الله على شيء مما حظي به نجيب محفوظ؟ لست أسوي بينهما ولكن الرجل يستحق شيئا لم نعطه إياه، ولم يأخذه. على أي حال فإن المستقبل لن يضن على من يستحقون عاجلا أو آجلا «وليس يتغير جوهر المسك إن سميناه طينا»، ولنقل أيضا على لسان سلمان الفارسي «فإني أرى في عذاب كل لحظة مرت به ورقة خضراء تتفتح على شجرة الحكمة.. حكمتك التي تخفى على الناس يا ربي» ولتتفتح أوراقُ سلمان ومُحمد عبد الحليم أيضا..

تناول المؤلف بعد نحو عقدين من الزمان رواية "الباحث عن الحقيقة" في دراسة موسعة، ضمنها كتابه" الرواية التاريخية في أدبنا الحديث- دراسة تطبيقية" (ط4، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة،1440هـ- 2018م)

الزمن الضائع والزمن الباقي

في زمن الهزيمة يتلهف القارئ العربي على كل إنتاج جديد تجود به قرائح الأدباء المرموقين، سواء كان هذا الإنتاج قصة أو رواية أو قصيدة أو مقالا أو مسرحية.. ومبعث هذا التلهف أن القارئ العربي يُريد أن يدرك مدى آثار الهزيمة وانعكاساتها على صفحة الأدب، ويرى تَصوُّرات الكتاب والأدباء لتفسير الأسباب التي أدت إلى انهيار الجيش دون مقاومة تُذكر أمام عدوّ كان الإعلام يُهوِّن من وجوده وقدراته، ثم يتطلع إلى تصوراتهم للخروج من المحنة والهوان. لقد فُوجئ الناس إثر الهزيمة بانهيار كثير من الأبنية وزيفها، وهذا مدعاة للشك في كل شيء على الأقل، والشك أخف من الرفض المطلق على كل حال!

وقد ظهرت بعد الهزيمة كتابات جيدة لها قيمتها في ميدان الفن الأدبي خاصة، وميدان الكلمة عامة، ولا يغض من قيمتها أن اتخذت في بعض الأحيان صورا عنيفة من النقد الذاتي، والثورة على بقايا الظلال الكئيبة للزمن السالف ومحاولة استشراف المستقبل عن طريق المعاناة والتجربة الصلبة التي تتسم ببذل الجهد والمثابرة العنيدة.

غضب

ومن الأدب الجديد الذي انتفض على أثر الهزيمة رواية مُحمد عبد الحليم عبد الله «للزمن بقية»، وهي انتفاضه على الظلال الكئيبة والأبنية الزائفة في أدبنا وحياتنا الاجتماعية.. وتتحرك من خلالها شخصية البطل «صلاح النجومي» ليكون إنسان ما بعد الهزيمة الذي يعاني عذابا وحيرة وألما وغربة وضياعا، ثم يحاول أن يبحث عن نفسه ليكون شيئا ما في دنياه بعد أن اختفت فيها شواهد الحقيقة، وضاعت لديها معالم الصدق والراحة، وأضحى كل من يقول الحقيقة أو يتفوه بها صادقا مع

نفسه صريحا مع ضميره، محل غضب من أولئك الطغاة الذين يعيشـون في الظـلام من أمثال «النجومي» الكبير وابنه «طه» شقيق «صلاح» !

إن «صلاح النجومي» هذا الذي فشل بعد أول مغامرة جدية في حياته صـمم على أن يتحرك ليُغيرّ ولم يكن ناقما على نفسه.. بل كـان في قلبـه نقمـة حقيقيـة عـلى الناس- «لو أن أحدا يفهمني»- كأنه يتكلم بلغة وهم يتكلمون غيرها، والإشارات ممنوعة. شعر أن منطقة مثل المناطق المنزوعة السلاح تقع بينه وبين الناس.. خـلاء.. خاوية تماما.. لكنه يحترم نفسه ويقـدرها. لمـاذا؟ إنـه يمـلأ كـل كـرسي إلا كـرسي الفصل، ويفهم روايات شكسبير مالم تكن مقررة أما إذا قُرِّرت فلا..(1)

رجل

لقد رسب الطالب «صلاح النجومي»، في شهادة اتمام الدراسة الثانوية.

وها هو ذا يتمزق .. تنازعه حالات شتى.. خوف و كبرياء!

أبوه العمدة أو النجومي الكبير ومـن حولـه شُـهّاد الـزور.. ثـم أخـوه طـه النجومي بصلفه وعجرفته.. وهذا عم محمد الجندي الخادم الأمين في الأسرة الـذي يقول الحق دون خوف أو وجل في هذا العالم الريفي المليء بالزور ! ما أجدر «صلاح النجومي» ، بحب هذا الرجل، وطلب المثل الأعلى فيه .. حتى حين قرر الهجـرة إلى خارج مصر يستشير عم محمد الجندي، لأنه لديه الحكمة مع الجرأة.. آه لو تمت تلك الهجرة لتغيرت الأمور وكانت النتائج شيئا آخر .. ولكن الحنين والارتباط بالأرض شيء قديم في الأعماق!

لقد عاد «صلاح النجومي» بعد فشل مشـروع الهجـرة ليمـر بتجربـة فاشـلة جديدة.. إنه عاد ليُمارس الحياة في القرية بين «آل النجومي» ويقـود الفلاحـين مـن أجل زراعة الأرض، ويستعمل معهم الشفقة بدلا من العنف، فيتكاسل الفلاحون و ينقص المحصول.. فتسود الدنيا في عينيه، ويُقرّر السفر إلى المحروسة بعد أن توفي «النجومي الكبير»، العمدة وخلفه طه، في منصبه. ويبحـث عـن نفسـه في القـاهرة

تلك المدينة الواسعة الممتلئة بكثير من المتناقضات.. وها هو يقابل رئيس تحرير مجلـة «المجلة الجديدة»، فيشعر بالضآلة ويحس بالقصر لفراغه الثقافي، بيـد أنـه يلتقـى في نفس المحلة بشخصية مركبة من الخفة والمعرفة والبسـاطة والعمـق، إنهـا شخصـية «البدوي السيد» البديل لعم محمد الجندي في المدينة.. لقد ساعد «صلاحا» عـلى أن يكون شيئا.. فيكتب في المجلة ويترجم بعض ما يكتب في الصحف الأجنبية، لكنـه سرعان ما يفصل مع صاحبه «البدوي السيد» من المجلة، فينتقلان للعمل في «دائرة المعارف»، التي يعمل بها رهط من الشيوخ وقفـوا أنفسـهم في سـبيل ذلـك العمـل الصامت الجاد.. فيخرج منه صلاح النجومي بحصيلة واسعة في شتى فروع المعرفة فتزيده ثقه بنفسه واعتدادا.. وتخطر له فكرة شراء «المجلة الجديدة»، حـين عرضـها صـاحبها الأسـتاذ «التهـامي»، للبيـع نتيجـة لظـروف سياسـية فيـذهب صـلاح النجومي،إلى القرية ويبيع نصيبه من الأرض إلى أخيه ويعود الى القـاهرة ليخـوض تجربة جديدة في ميدان الصحافة بين مد وجزر.. ويعيش حـول «المجلـة» نفـر مـن الشبان المتطلعين إلى هذا الشيء الجديد "صلاح النجومي" و مجلته، فقد اعتقدوا آنه هو الشيء الذي يبحثون عنه وينتظرونه!

انتخابات

ومن خلال ذلك تُعلن الدولة عـن انتخابـات لمجلـس النـواب، فطـرق طـه النجومي الباب على أخيه داعيا إيـاه لخـوض التجربـة. وبعـد اغـراء و تـردد يقـرر «صلاح»، خوض المعركة الانتخابية معتمدا على شعبيته لدى أهـل قرينـه وشـباب الدائرة، ويذهب صلاح إلى القرية يشـيعه خـوف «البـدوي السـيد» عليـه، وأملـه بالنصـــر .. وتكـون النتيجـة أن يبيعـه أخـوه طـه النجـومي، إلى الخصـم « عبـد الجليل»،ويرجع «صلاح» إلى القاهرة منتكساً بعد خديعـة وغـدر مريـرين، ولكـن «البدوي السيد»، الذي كان مشفقا عليه من خوض التجربة، لا يتركه لليأس،ويبث فيه العزيمة من جديد ويتجهان إلى العمل مـرة أخـرى في «دائـرة المعـارف» ، التـي

انتهت من حرف «الحاء»، وبدأت في حرف «الخاء» الخير والخليقة وخبير وخُبز... ، وتقول «أسرار»، السيدة الوحيدة في القصة: «تشجعوا يا رجال .. فمازال في الـزمن بقية»

إن رحلة صلاح النجومي التي لخصناها بإيجاز شـديد تعـيش في أعـماق كـل عربي.. خاصة العربي المثقف.. وقد شهد هذا العربي الرحلة قاسـية مريـرة وجـرح قلبه غدرا وخيانة، إن «صلاح النجومي» رمز المعاناة والتطلـع إلى الغـد المشـــرق.. حقا إذا كان صلاح هكذا.. فإن العربي يعيش معاناته، وإذا كان صلاح ساخطا فهو ساخط، بيد أن من يتمرد و يحتج وينطق.. لا مكان له إلا في الأعماق الخبيئة تحـت ركام الخوف والسوط!!

فقير

ولكننا نجد في القصة عم «محمد الجندي».. الخادم الأمين في دوّار آل النجومي منذ زمن طويل هو الذي يتمرّد ويحتج وينطـق ويقـول الحـق دون خـوف أو مواربـة.. إنـه لا يملك شيئا فهو لا يخاف على شيء.. فقير بلغ أرذل العمر ماذا ينتظر؟.. لا شيء.. ولذلك فهـو يصف مجتـمع القرية من خـلال علاقتــه بالعمـــدة « النجـومي الكبـير»: "ونـاس قريتنا أعرفهم جيدا.. يشربون قهوة أبيـك ويبصـقون في فنجالـه.. هكـذا علمهـم هـو.. والغريب أنهم تفاهموا في صمت على أن ينافقهم وينافقوه...» (2) ومن خلال تأثر صلاح وهو شاب يافع بعم محمد الجندي، فإنه يرى رأيه في نـاس قريتـه «يـرى أن الحركـة أشـهر دلائل الحياة. ويعجب لمجموعة مـن النـاس لا يكـادون يفـارقون مجلـس أبيـه العمـدة.. كالتماثيل يهزّون رؤوسهم موافقين طول النهار دون أن تتعب أعضاؤهم.. حتى إذا عادوا إلى زوجاتهم انقلبوا ناقدين ناقمين»(3).

باطل

إن عالم الصمت الذي يطبق على مجتمع القرية لا يجد فيه صلاح أيه بارقة مـن أمل أو خير .. إنه «عالم ليس فيه شيء يتنفس إلا بطريقـة النبـات»(4) ومحـور هـذا

العالم أخوه « طه النجومي» رمز القوة القاهرة المطفئة لكل بهجة أو فرحة.. فهو عالم توأد فيه معالم الخير والإنسانية.. عالم لا يعلو فيه صوت بالغناء إلا اذا كان « طه النجومي غائبا.. يختلج وجدان صلاح بما يرى في هذا العالم فعجب كيف «تستطيع النفوس كمجموعة أن تحتمل هذا الباطل» (5).إن تجربة صلاح في الريف دفعته للهجرة أولا هرباً من جحيم لا يُطاق، جحيم آل النجومي.. ولكن آصرة الميلاد والنشأة، ورعب الغربة والوحشة يُعيدانه ثانية إلى أرض القرية فيُجرِّب حظه من جديد.. يتعامل بوصفه إنسانا يُريد الخير ولكنه يخفق. يريح الفلاحين فيقل المحصول! ولا تجد أفكاره أي صدى إيجابي؛ بل تضيع في عالم العقم والجمود والإرهاب.

«قد تضيع فكرة ويهان نبيّ. و يهرع الناس إلى المعابد الوثنية وليس في قلوبهم شيء من الرثاء حتى الغامض لنبي منبوذ»(6)، إنه يبحث عن الحقيقة وسط الزيف،وإذا كان يعرف ما هي الحقيقة؛ فإنه ينتظر مولدها ومن أجلها يودّ أن يكون شيئا يؤثر فيها، ويتأثر بها ولو عمل مع الشيطان كالأستاذ « التهامي» رئيس تحرير «المحلة الجديدة».

حاسة

ويبدو لنا تأثر صلاح بشخصية «البدوي السيد»، تأثرا واضحا كما تأثر من قبل بعم : «محمد الجندي».. وإن شخصية البدوي السيد شخصية مُجربة عركت الحياة وتستطيع أن تدرك كنه الأحداث و تفسرها بحلم الحاسة الفطرية التي نمت بالتجارب و خاصة تجارب الصحافة وإنه ليعطي بطلنا من التجارب والدروس ما يعجز عنه الكثيرون، وإنه ليلمح بحسه الفطري وتجربته الشخصية مدى حماسة البطل واستعداده للقيام بالدور البطولي المالي في المجتمع المزيف، ولكنه يشفق عليه من الانتهازية والخيانة.. «لا تيأس إن كنت تُحب العمل مع الأستاذ التهامي.. معي.. تأكد أن ذلك ممكن غير أنه لابد أن يُطعِّمك ضد الطموح و ضد المطامع.

هناك أربطة يلفونها بقسوة حول حماسة الشباب فـاذا بهـا تتحـول إلى مسـالمة ومـن المسالمة إلى الخضوع ومن الخضوع إلى الذل» (7) وليت «البدوي السيد» يقف عنـد هذا الحد- أي إدانة الأشخاص فقط بل نراه يدين الفكر السائد عامة، والغريب بعد ذلك أنه يتفاعل بالتغيير :

- عندما يصبح الفكر تجارة تصبح الأسواق كلها متساوية.
- ماذا تعني ؟
- أعني أن التجارة في « الفكر، مثـل التجـارة في الإنسـان، كـل أسـواق الرقيـق سواء.. وليس هناك نخاس مثالي و نخاس منحط . لـذاك فلأبـق حيـث أنـا.. والأستاذ التهامي عرفناه ..(صمت) .. ومع ذلك فلابد أن تتغير الدنيا» (8).

قيود

التفاؤل بالتغيير ليس مطلقـا، ولكنـه تفـاؤل مشـوب بحـذر، وبـإدراك واع لصعوبة هذا التغيير وهناك عناء ما بعده عناء.. تماما كما حدث بالنسبة لتحرير المرأة أو تغيير وضعها الاجتماعي بمعنى أدق :

«و اذا كانت الدعوة إلى سفور الوجه لقيت عناء في الشرق، فـان الـدعوة إلى سفور الروح لقيت عناء في كل الدنيا.. فكـما عانـت المـرأة خلـف النقـاب، عانـت الروح في بيوت النار والأصنام و قيود الكهنوت» (9)ولقد مر «صلاح النجـومي» بتجارب فاشلة و ناجحة، ولكن التجارب الفاشلة كادت أن تعصـف بـه في بعـض الأحيان.. وتشلّ قدرته على مواصلة التجارب، واسـتطلاع الـدروب لأن الظـلام القائم لا يحل في مكان دون آخر بل يخيم على الأمة جميعـا.. وشـاب مثـل «صـلاح النجومي» يشعر بضعفه إزاء هذا الظلام القاتم لابد وأن يصاب بالفتور والملـل إن كثرت اصطداماته مع عوائق الطرق المظلمة ولم يُسعفه أحد.. و تجربـة الانتخابـات النيابية مع أنها فشلت إلا أنها كانت تجربة حية ومثيرة، صحيح أنها كادت تعصف به وتشلّ قواه إلا إنها بفضل «البدوي السيد» قد أقنعته بمواصلة السير في صبر وتـؤدة

وإيمان. فعندما عرف «صلاح» أن «طه النجومي» الأخ الأكبر قد باعه لخصمه.. ورجع إلى القاهرة منتكسا حزينا ويائسا مشلولا يقول له « البدوي السيد » **قول المجرب الواعي**:

«لا تنس أن بعض أتباع المسيح سلموه بعد العشاء الأخير عندما طلبته السلطة للصلب.. وعلى كل حال منظر البقرة الساخطة على غلاف المجلة أعجبني.. اضحك يا صلاح.. خذها ببساطة .. فكلنا بقر ساخط»(10)، ولست أدري لماذا تذكرني هذه الجولة الانتخابية التي فشل فيها « صلاح النجومي» بالغدر والخيانة ممن أوليناهم ثقتنا واعتقدنا لقرابتهم منا أنهم لا يخونون ولا يغدرون ولا يجرحون مهما كانت الجفوة ومهما كان الخلاف ومهما كانت المغريات.. إن هذه الجولة الانتخابية الفاشلة تلح عليّ إلحاحا شديدا وتُذكر بتلك الأيام المثيرة والسوداء من يونيو1967م. فهناك عوامل مشتركة بين الموقفين أو بين الصورتين. غدر القوى الكبرى التي كانت تزعم صداقتنا، والأشقاء العرب الذين تخلوا عنا. إنها الضجة ثم الهتاف وفي السرّ غدر وخيانة ثم الهزيمة الصمت الحزين الرهيب !!

لغة

ويبدو أن مُحمد عبد الحليم عبد الله أراد أن يمثل دور الشاعر نزار قباني في عالم الرواية مع الفارق.. فكلاهما ساخط ينقد الماضي بعنف وينعي لنا اللغة القديمة والفكر السائد ويكسر كل ما هو زائف تافه.. وكل يقول بطريقته الخاصة .. وماضي الاثنين يختلف إيجابية وسلبا .. وإذا انتفض نزار على عالم المرأة والعشق والنشوة واللذة.. الذي كان يعيشه في شعره.. فإن مُحمد عبد الحليم عبد الله، يتجاوز العالم الذي ألفه وانشغل فيه بتحليل النفس البشرية والتعبير عن العلاقات الإنسانية في الريف والمدينة إلى الواقع الاجتماعي المشتعل وما يضم من قضايا تتعلق بالفكر والحرية والسياسة وغيرها.

سخط

وهذا الانتفاض حسن ومقبول، لكنه يقف بنا عند حدود السخط والتحطيم ونعي الموتى.. ولا يُعطى بُعدا واضحا للمستقبل، وإن كان يلوح من خلال أزمة «صلاح النجومي» أمارات أمل تُعلق على ما يسمى في القصة بحزب الفلاحين الذين يكدحون ويعملون. وهذه الأمارات غير واضحة أيضا، بيد أنه يمكن تفسيرها بأخذ الحرية وإتاحة المعرفة والتخلص من النفاق والزيف.

والمتأمل لما أراد أن يقوله مُحمد عبد الحليم عبد الله في هذه الرواية يجده قد قال شيئا وحبس نفسه عن أشياء تحت تأثير العاطفة الملتهبة والإحساس المروع بالهزيمة والحزن والمرارة وما يشبه اليأس من شيء كان قائما في عالمنا الاجتماعي،ومازالت أنقاضه أمام العيون تهيب بالنظارة أن يحمل كل منهم ما يستطيع حمله كي يقام البناء الجديد على أساس نظيف!

واني لأحس غموض الزمان في هذه الرواية مع ما هناك من إشارات واضحة تدل على أنها في الزمن الذي مضى بعيدا، ولكنه يشي بنفسه غالبا، هو يريد أن ينسى نفسه دائما في الزمن الحاضر تأثرا وانفعالا.. ولهذا كانت الرواية ذات زمن غير واضح.. ولم أجد وصفا أشمّ منه رائحة مميزة لهذا الزمن.

ويبدو لي أن غموض الزمن ووضوح المكان يجعل الرواية أقرب إلى المسرحية أو يسهل عملية تحويلها إلى المسرح، هذا بالإضافة إلى كونها مُركزة جدا وأبعد عن العمل الروائي المترسل. ويمكننا لو حولناها إلى مسرحية أن نرى الصورة المقابلة للبطل في مسرحية سعد الدين وهبة: «المسامير» ..

جرأة

وصلاح النجومي عند محمد عبد الحليم عبد الله ريفي مُثقف متمدن، رفع صوته في وجه القهر فانهزم أو انتكس.. وعبد الله ريفي فلاح رفع البندقية في وجه

القهر فانهزم وانتكس.. وكل من البطلين لم ييأس.. بل راح يجدد نفسه ويؤهلها لتمثيل الدور من جديد على أرضية جديدة أصلب وأمتن!

وفي الحقيقة فإن الجرأة والإقدام على تناول الهزيمة الراهنة، شيء محمود وشجاعة لا يُستهان بها في عالم الأدب المعاصر.. إذ إن كثيرا من الكتاب والأدباء عاش يكتب إما شيئا بعيدا عن قضايا الناس أو شيئا يُروّج للزيف والقهر، دون خوض في واقعنا الذي يعاني ويختلج!

وإذا اعترض أحدهم وقال: إن صاحبك قد مزج القضية في أسلوب رمزي مثالي.. ولم يتناول الأمور في واقعية واضحة فإننا نقول إن هذا لا يغض من قيمة العمل الفني فكريا.. « وفي البدء كانت الكلمة»، والرمز مرحلة للوضوح ومجرد التناول يشجع على خوض الأعماق فيما بعد.

على أية حال فإن «صلاح النجومي» خاض التجربة التي خاضتها الأمة.. وإذا ضاع زمان فسوف يأتي زمان باق يهتف في أعماقنا و يقول : هيا أيها الساخطون.. تقدموا إلى الدرب و سيروا عن وعي وفي حرية لعلكم تجدون ما يرضيكم.

الهوامش

(1) للزمن بقية، ص 4– 5

(2) ص 11

(3) ص 22

(4) ص 25

(5) ص 29

(6) ص 21

(7) ص 85

(8) ص 66

(9) ص 82

(10) ص 148.

إبرسيم.. ورهبة اللقاء

1 – أسمحُ لنفسي أن أذيع شيئا كان صاحبه يعتبره سرا أو شبه سر في حياته،ضنَّ به على الناس، وأخفاه طي الكتمان، حتى طواه الزمان وصار هو وما أخفاه ملكا للتاريخ، وميراثا لمن خلفه من أهله وذويه. وإني لأعتبر هذا الميراث ملكا للقراء جميعا، فهو ليس عقارا أو آثارا مادية يمكن الاختلاف عليها أو التنازع فيها، بل هو مجموعة كلمات نيرة تضيء ظلمات العقل وتمسح بأشعتها مستنقعات التخلف النفسي والاجتماعي.

وليست القضية الآن مدى أحقية الناس فيما خلفه الكاتب من آثار أدبية أو نتاج فكري، وانما القضية هي قيمة هذه الآثار وذلك النتاج.. لأن كل شيء أصبح بالضرورة في أيدٍ أخرى وأن اليد التي كانت تحرسها تعجز أن تمنع عنها أحدا بفعل مرّ الزمان وإرادة الأقدار!

ولقد كان مُحمد عبد الحليم عبد الله من النفر الذين يؤثرون الصمت حيال بعض أعمالهم سواء ما نُشر منها أو ما لم ينشر، فقد صرح لي رحمه الله ذات يوم، بأن إحدى قصصه المنشورة لم تعجبه شخصيا، ولم يرض عنها فنيا، ومن ثم فإنه مع شدة الإلحاح عليه لنشرها، لم يقبل بإعادة طبعها في حين أن بقيه كتبه طُبعت مرات كثيرة و بكميات أكثر من الكميات السابقة (1).

غرام

وكان من نتاجه الذي لم يُنشر في حياته باكورة إنتاجه الذي اعتز به اعتزازا جعله يضعه في حرز أمين : رواية «إبرسيم» أو «غرام حائر» وقد كتبها في عامي 1935–1936 أثناء دراسته طالبا في مدرسة دار العلوم العليا كلية دار العلوم الآن وكتب معظمها في قريته(2)، تحت ظلال الأشجار الوارفة وبين خضرة الحقول

الزاهرة، وكان معه آنئذ أحد أشقائه يُشاطره آلام المخاض الروائي ومعاناة ميلاده، وكان عمره آنئذ حوالى الثانية أو الثالثة والعشرين، وهي سن مبكرة نوعا ما بالنسبة الروائي يُفترض فيه أن يكون قد خاض عباب الحياة، وشرب من تجاربها الكثير. وإذا كانت هذه السن المبكرة تعد بداية الاحتكاك الحيوي مع العالم الاجتماعي والفني للأديب الناشئ، فإنها بالنسبة لمحمد عبد الحليم عبد الله تُعبر عن مدي نبوغه المبكر ورؤيته للأشياء المحيطة به وتفسيره لها وتفاعله معها، وتوضح قدرته على التوفيق إزاء الفكر القائم والفن المنتظر .

بنت

2- وتدور أحداث الرواية في مملكة من الممالك مجهولة الاسم والمكان والزمان، وأبطالها الرئيسيون ثلاثة: صديقان- رجاء وسداد- وفتاة هي «إبرسيم» (٣)، بنت ملك المملكة، وهو ملك بلا اسم أيضا ولا ملامح له، مثله في ذلك مثل أبطال القصة فلا تعرف إلا اسما مفردا لكل منهم، وكل الأسماء تقريبا يصحّ إطلاقها على الرجل والمرأة .

ويعمل سداد مع الملك في قصره مساعدا أو مستشارا أو وزيرا.. وتنازعه نفسه بإغراء من معارضي الملك، بخيانته والانقلاب عليه، فحدث صديقه «رجاء» الفقير الذي يحيا مع أمه في بؤس وشقاء، عن رغبته في الاستجابة للمعارضين، والهاجس الذي يختلج في داخله، فيكتب إليه معارضا هذه الرغبة و يذكره بالفرق بين الأمانة والخيانة. وتشاء الأقدار أن يُسرق قصر سداد ويكون من بين المسروقات رساله «رجاء المعارضة للخيانة، فتصل هذه الرسالة بطريقة عجيبة الى الملك، حيث تلقفها أحد الضباط من صبيّ كان يبيع الحافظة التي تحويها في أحد الشوارع. ويقوم الملك بالانتقام من «سداد» ويضعه في الحبس الدائم. ويعين «رجاء» بدلا منه مستشارا أو مساعدا أو وزيرا.

ويعلـم مـن خـلال الرسـائل التـي تُبودلـت قبـل تـولي «رجـاء» منصـبه الجديد،وقبل حبس « سداد» أنه توجد في قصر الملك فتاة جميلة هي «إبر يسـم» ابنـة الملك.. ومن ثم نجد الأحداث تـدفع «رجـاء وإبرسـيم» حـين يلتقيـان أن يتعلقـا ببعضهما تعلقا عنيفا وعفيفا أيضـا، ويتبـادلا أشـواقا محـاصرة بـالخوف والرجـاء. ويتضح لنا أن هذا الحـب قـام عـلى دعـامتين أولاهمـا: إعجـاب «إبرسـيم» بأمانـة «رجاء» وإخلاصه، وثانيهما: التعاطف المتبادل بينهما.

إبعاد

وحين يُتاح لهذا الحب النمو والازدهار يتدخل القـدر لحرمـانهما مـن التـنعم بثمرة هذا الحب، فصدر قرار الملك بإبعاد «رجـاء»، إلى إحـدى الجـزر لإخضـاعها وبث الأمن في ربوعها. وينزل رجاء عـلى رغبـة الملـك احترامـا للواجـب و إيثـارا للضمير الوطني، ويفترق الحبيبان فراقا مُرا ومـؤثرا، ويودّعـان بعضـهما إلى حيـث المجهول.

وفي الجزيرة حقق رجاء كل آمال الملك في توطد الملك وثبوت دعـائم الحكـم بيد أنه يهزه الشوق ليلة ما للانطلاق فيسيح عـلى وجهـه راكبـا فرسـه وينقطـع بـه الطريق فيضلّ تائها، وينتظر المـوت القريـب الـذي أصـبح محققـا في ذلـك المكـان المقفر،وفي خلال محنته هذه تنجده الأقدار فجأة بفتاة تبحث عن أخيها الذي يشترك في حراسة الشواطئ، فتحمله على فرسها ثم يصحبان بعضهما كل على فرسه حيـث يفترقان عند القصر. وتبدأ من ثم قصة أخرى حيث يتعلق قلب رجاء، بقلـب هـذه الفتـاة التـي تعمـل ممثلـة في أحـد الملاعـب بـالجزيرة. ولكـن رسـائل «إبرسـيم»،والتـذكارات القديمـة تحيـي فيـه الحُـب الأول وتجعلـه يقطـع صـلته بـ«كاميليا»، الممثلة الفاتنة، وعندما يـؤذن لـه بـالعودة إلى عاصـمة المملكـة يركـب السفينة جزلا فرحا بلقاء الحبيبة الغالية، وتنتظر هي عـودة الحبيـب الغـالي، ولكـن الحظ العاثر والقدر العاتي و الزمان المتربص يـأبون علـيهما أن يـنعما بالحـب ويجنيـا

ثماره، فتهب عاصفة تغرق السفينة بالقرب من الميناء، و ينتشلون الغرقى ومن بينهم «رجاء» الذي بقي حيا حتى خرج من الماء و نظر نظرة في وجوه الحاضرين استقرت أخيرا على «إبرسيم»، ثم شهق شهقة انطبقت بعدها الأجفان و صعدت روحه إلى بارئها، و تنتهى قصة حب فريدة بمأساة حزينة دامية.

دهشة

3 - والحق أنني وقفت إزاء هذه الرواية مندهشا تعروني هزة التلقي لشيء جديد يحمل خصائص البكارة الأصيلة والأصالة المبكرة.. فقد شعرت معها أن هذا العمل الأدبي يشدني بقوة إلى المتابعة والاستطلاع بعكس الأعمال الأدبية الأولى التي نعرفها لكثير من أدبائنا في مطالع حياتهم، ومع أن هناك عيوبا فنية في هذه القصة الطويلة، فإنها تحمل في أعماقها فكرا ناضجا وأسلوبا مشرقا واختلاجا بالأمل ينبعث من معاناة الواقع المرير.

وهذا العمل يحمل في طياته صورة ناضجة للعصر الأدبي والمزاج الفني اللذين كانا سائدين وقتئذ، وفي تلك الفترة التي شهدت مخاض الثورة الاجتماعية والسياسية، كانت البلاد تتفاوض مع الإنجليز حول الاستقلال وتضج بالثورة، وتنفجر طاقات الشباب المصري احتجاجا على معاهدة 1936م تطلع إلى الاستقلال والسير في طريق الحياة الإنسانية بلا وصاية ولا أوصياء. وكأني بمحمد عبد الحليم عبد الله جزء لا يتجزأ من واقع هذا الشباب المتفجر الذي تمتلئ نفسه بأحاسيس شتى تجاه نفسه وربه ومجتمعه، فيعي هذه الأحاسيس و يحملها داخل وجدانه و يحللها بفكره، ويحولها إلى عمل فني يقوم على الخيال والرمز والتأمل الطويل ومن خلال نظر بعيد وفكر ثاقب.

شعبية

مُحمد عبد الحليم عبد الله فلاح من مصر ، يحمل على كتفيه هموم القرية وآلامها و يحمل في أعماقه روحها وأحلامها، وكلها بماضيها وحاضرها ومستقبلها تسكن قلبه لا تبرحه ولا يبرحها لأنها بعض منه وهو جزء منها، هما كيان واحد لا يموت مهما تغير الزمان فما بالك ومحمد عبد الحليم عبد الله يكتب « إبرسيم» ، وهو في أول عهده بالمدينة؟

ومن ثم أراني أقول إن «إبرسيم » تدين في تر كيبها واطارها للروح الشعبية المصرية وخيالاتها العجيبة، وما ينشر عنها في القرى بألسنة المدّاحين وشعراء الربابة والمغنين، وهو خليط من «ألف ليلة وليلة» و «سيف بن ذي يزن» و «الأميرة ذات الهمة» و «أيوب» و «ياسين وبهية»...الخ.

ومعظم هذا القصص الشعبي يدور في دنيا الملوك وداخل قصورهم وبين أبنائهم وبناتهم ووزرائهم وأعوانهم وكل من ينتمي إلى هذه الدنيا، مع وجود رمز شبه دائم لواحد من الفقراء أو البسطاء أو أبناء البلد يقوم بالبطولة الخلقية والإنسانية، وقد تحقق في «إبرسيم » وجود هذا البطل أعني «رجاء» ممثلا لهذا الشعب وواحدا من أبنائه المخلصين إلى جوار الملك، وهو رمز الوفاء والمروءة والاخلاص.

وأظن أن مُحمد عبد الحليم قد ترسبت في أعماقه ملامح الروح الشعبية كأي قروي عاش في ريف مصر وتشبع بهذا الريف قلبا وقالبا. وانطلق في هذا القول من واقع شخصي مررت به وما زلت أحياه حتى النخاع، ولا أخاله قد جانب الحقيقة والصدق حين تأثر بهذه الروح فسقط ظلها على أول عمل فني له يحجبه عن الناس ولا يذيعه عليهم.

انتشار

وقد شهدت فترة البداية أو المخاض الأدبي للرجل ازدهارا لا مثيل له في انتشار المذاهب الأدبية والتيارات الفكرية المختلفة على صفحات الكتاب والأدباء والمفكرين، وقد شاء مذهب الرومانتيكية في مصر شيوعا كبيرا خاصة لدى الشعراء، وهو مذهب له قيمته الفنية والموضوعية بالنسبة للظروف التي نشأ فيها،قد نشأ على أنقاض الكلاسيكية في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وحطم قواعدها الصارمة وتجاوز عطاءها المتحفظ وانطلق يحلق في آفاق العاطفة الإنسانية بلا حدود. ولا ريب أن محمد عبدالحليم عبدالله قد تأثر بهذا المذهب تأثرا كبيرا لا يمكن انكاره بيد أنه استطاع أن يستوعب ملامحه استيعابا صحيحا وليس خاطئاً كما حدث لمعظم أدباء مصر الذين ظنوا أن الرومانتيكية تعني الحديث عن قضايا الحب والغرام والوحدة والكآبة فقط، ولا شيء أكثر من هذا، بينما الحقيقة تخالف ذلك وتعني الثورة على الجمود والقهر والطغيان والركاكة والتقليد. وأعتقدُ أن مُحمد عبدالحليم عبد الله فهمها على هذا النحو القريب إلى الصواب، ومن ثم جاءت قصة حبه عفيفة وغير مبتذلة ويشرق من خلالها الأمل حتى في أحلك ساعات الظلام في ظل الإحباط الواقف بالمرصاد لأبطال قصصه ورواياته.

في تلك الفترة كان الأستاذ أحمد حسن الزيّات صاحب الرسالة الفضل الأكبر في إتاحة الفرصة لنشره هذا المذهب بالترويج له فقد أعطى من صدر الرسالة، متسعا للشبان الأدباء الذين يتطلعون للحرية و التعبير الثائر، ونشر آنئذ ترجمته الرائعة لآلام فرتر، الأنموذج الحي لما كتبه واحد من زعماء الرومانتيكية في الغرب وهو الشاعر الألماني جوته.. وكان الزيات في ترجمته بالإضافة إلى ما كتبه من مقالات وما أخرجه من كتب رمزا للأسلوب الموسيقي والإحساس الفياض والوجدان المتحفز، مما دفع معظم الناشئة إلى تقليده واحتذائه... فضلا عن شيوع

كتب المنفلوطي المؤلفة والمترجمة، بطابعها العاطفي الإنساني. وأعتقد أن محمد عبد الحليم عبد الله قد تأثر بذلك إلى حد ما وسنوضح بعضه فيما بعد.

مشاركة

بيد أن هذه الرومانتيكية التي أضفت ظلالها على إبرسيم، لم تكن سائدة وحدها، فقد شاركتها رمزية شفافة وجذور واقعية رفيعة جدا، وهو ما يجعل الرواية أكثر انتماء للظروف الاجتماعية السائدة وقتئذ، يؤكد ذلك موضوع الصراع بين العاطفة والواجب، وتغلب الواجب على العاطفة في معظم المواقف الحساسة وهو ما يعتمده الكلاسيكيون و ينطلقون منه بادئ ذي بدء كما في أعمال راسين و كورني.

4- وقد يتخيل بعضهم أن «إبرسيم» تتحدث عن قصة حب عاطفية منفلوطية نسبة إلى المنفلوطي تثير الدموع والأشجان! والحقيقة أننا لو تتبعنا ما جاء فيها فسوف ندرك أن الكاتب الموهوب اختار الموضوع الحساس جدا واعني الحكم إطارا يحقق له عنصر التشويق وانتباه القارئ طوال الوقت وانجذابه إلى كل حرف في الحكاية.

إن الملك في الحكاية له معارضون وله مؤيدون ، وبين هؤلاء وأولاء مترددون من بينهم «سداد» صديق «رجاء» الذي تحدثه نفسه بالخيانة بعد أن عاش في رغد من العيش والرفاهية. بيد أن الإغراء يزين له الانقلاب على الملك، وأن ذلك سوف يحقق له كثيرا من الرغد والرفاهية. ولكن رجاء لا يعجبه ذلك لأنه يدين بالولاء للملك مادام هو مخلصا الشعب و محققا لأمانيه وهو رأي صريح في موضوع الملك ويرى أن من واجب المساعد للملك أن يخلص ويجد ولا يخون ولا يحقق مآربه الذاتية، وهو رأي صريح في الحكام و حواشي الملوك. وحين يدوس «رجاء» على قلبه وعاطفته وحبه «إبرسيم» ويذهب بعيدا إلى الجزيرة المعزولة ليحقق واجبا وطنيا مقدسا وهو الاستقرار والازدهار، فإنه لا ينسى أن يوفي لصاحبه

«سداد»،الذي أضناه الألم والكرب في سجنه حتى صار حطاما وأثرا بعد عين، زاره «رجاء» ويسعى لإطلاق سراحه ولكنه حين يرى إصرار «سداد على الخطأ، يتراجع ويتركه يلقى مصيره المحتوم.. ولكنه بقي على وفائه وحبه له فيدفنه ويبكي بجوار قبره ويضع عليه الزهور.

مثالي

وعندما يميل القلب إلى «كاميليا» يشده التذكار إلى «إبرسيم» الحُب الحقيقي والصادق فيستغفر ويعود إلى أحضان الحقيقة نادما و معترفا بها كان.

إن رجاء إنسان مثالي فعلا، ولكنه معرض للخطأ سُنة البشر وطبيعة الآدميين ويعدّ رجاء رمزا للعقل والاتزان والحكمة، وأكاد أقول إنه عصارة الهموم لكاتب في مطلع حياته وصباه.. «فما شربنا الكأس صافيه قدر ما شربناها ممزوجة، ولا رأينا السعادة حاضرة قدر ما رأيناها مفقودة» (4)، وفي موضع آخر يقول: « فإن الزمان أشبعنا إساءة » (5)، والخطأ الذي يتعرض له البطل غالبا ما يكون خارجا عن إرادته أو هو خطأ الأخرين تجاهه دون أن يخطئ هو في حقهم.

رجاء، يحب الوطن ويحس بالغربة مُرّة وحارقة حين يبتعد عنه، ولذا فإنه يصف ذاته عندما عاد إلى هذا الوطن بعد غربة طويلة فلاقى احتفاء الأهل والأحباب « لذت له حياة الوطن وإن كانت تنغصها عليه الذكريات وتفترسه يد الدهر المقبوضة. ولكنه تمتع بالقليل حتى يأتيه الكثير، ولم تمتد عيناه إلى ما تقصر عنه يداه، وعاش وأهله من حوله عيشة لا يرضاها إلا الزاهدون المتبتلون، وما راعه بلى الدار و امحاؤها غداة دخولها، فهو ابن الزمان البار الذي يحفظ له الإحسان إن أحسن و يغفر له السوء إذا أساء» (6) أليس رجاء بطلا مثاليا حتى في حبه لوطنه، وإن كانت المرارة تسقط من كل حرف يقوله؟ يقول في خواطره: «ليلي كالبحر وسفينتي فيه وحيدة تتكسر وأنا ربانها»(7) وتلح على «رجاء» من خلال انثيال

الفكر، عوالم الروح والطهارة والنقاء والسلام.. و «رجاء»، مدين بكل هذا للكاتب الذي نشأ نشأة طيبة طاهرة عمادها القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

موضوعية

و «رجاء» ينظر إلى الأشياء نظرة موضوعية لا تطغى عليها العاطفية إلى حيث يكره؛ بل يسير بالعقل المنظم الواعي، ولعل الخطاب التالي يمثل شاهدا على ما تقول:

«ماذا دهاك يا سداد؟ وماذا أصابك؟

أمن غلطة واحدة تقلب لوليك ظهر المجن، وتعلن عليه حربك وجهادك غير ذاكر عهدا ولا حافظ ميثاقا؟ أمن غلطة واحدة تفعل كل هذا إن صح أن تعد حيطة المليك لنفسه غلطا؟ لا يا صديقي ليس هذا من الشرف في شيء، إن جنين الخيانة الذي يتكون في نفسك سيكون من قاتليك إن آن له أن يتم تكوينه، فاقض عليه أنت قبل أن يقضي عليك ولا تشحذ السكين لنفسك بنفسك. فان هذا كثير على دابة بلهاء» (8) تأمل تصوير الخيانة في عبارة الكاتب، إنه تصوير فريد ورائع في أدبنا العربي .

و «رجاء» يعلن مع معارضته للخيانة رأيه في الملك والحكم اثناء مناجاته مع حبيبته « إبرسيم»:

«.. لو لم يكن العدل محور حكمكم والإخلاص لحمة عملكم، ما أبقى الله شجرة الملك ناضرة الأوراق ناضجة الثمرة، ولسلط عليها ريحا عاصفة تبعثر أوراقها وثمارها و تركها عودا عاريا متكسرا ، لا ينفعه الظل ولا يجديه الحيا..» (9)

وهو مع ذلك وطني من طراز ممتاز «.. في سبيلك أيها الوطن أنزل كأس الحتوف من على ثغري ضاحك السن كما أنزل سقراط كأس السموم كذلك، وسقراط مات شهيد العلم، فلأمت أنا شهيد الوطن..» (10)

قليل

أمـا فكـره في الحـب فهـو تفكـير مـن لا يـأمن إلى المـرأة أو مـن يتشـكك في إخلاصها ووفائها، وهو رأي يحتمل المناقشة وإن كان من الأفضـل أن نـورده هنـا. فها هو يقول: «.. ولأن المرأة قد تحب الرجل لفضيلة فيه، ومـا أقـل الـلاتي يهـوين الرجال من أجل الفضائل. إنـك لا تجـدهن إلا بـين ذوات النفـوس الجميلـة التـي تخلّصت من أرجاس المادة ومفاسدها، وقليل ماهُن، وقليـل أن ينهـار غـرام مأتـاه الفضيلة لأنها سبب خالد باق، وليست بالعرض الزائل، ولا الظل المتنقـل، فللـمال آفة و للجمال مثلها، والحديث كثيرا ما تعرض عنه الغواني أو كثـيرا مـا يكـون أثـره سريع الزوال، فعاطفة المرأة متحولة ليست تقر على قـرار» (11)، وهـو رأي مثـالي تماما، وحين يستمسك به المرء فإن مصاعب الحياة سوف تصبح أكثر تعقيداوجفافا.

بيد أنه من خلال هذا الحب تستبين ملامح المقاومة لفواجع الزمان وضرباتـه « قل لضحايا الزمان هوّنوا عنكم فإنا شربنا مرارا على القذى، ثـم رقـت مشـاربنا» (12) والطريف في هذا الحُب عند محمد عبد الحليم عبد الله أنه يُقرب بين الطبقات، ليس طبقيا بين أفراد الطبقة الواحدة كما يـرى بعضـهم وأسـبابه في ذلـك: «.. لأني أعرف الحب مكانا يلتقي فيه الحبيبان إن اختلفت بهما الأماكن، فهو معراج يعرج به الأدنى إلى الأعلى، وهو مهواة يهوى بها الأعلى إلى الأدنـى، ولا يـزالان في طـريقهما حتى يلتقيا فيستقرا وهنالك تستوى المنازل والمراتب..» (13) .

5- وفي هذه الرواية تبدو شخصية «رجاء» هي الشخصية الوحيدة التي تكاد تكتمل ملامحها الإنسانية ، بينما شخصيتا «سداد و إبرسيم» غير واضحتين تمامـا، أو بمعنى أصح فان الكاتب لم يستبطن عالمهما الداخلي وركز اهتمامه على «رجاء» الذي يكاد يترجم نفسية الكاتب الشخصـية وأفكـاره الإنسـانية وآراءه الاجتماعيـة تجـاه الأحداث والحياة.

نسق

ويخيل إلى أن الكاتب حاول أن يرسم شخوصه ويبني هيكل روايته على نسق «آلام فرتر» التي ترجمها الزيات، بيد أن هذه المحاولة لم تأخذ طابعا متكاملا ولم تحقق نجاحا كبيرا من ناحية تطور الشخصيات، وإن كنتُ أرى أن الكاتب تفوق في الأسلوب الذي سرد به أحداث روايته، وهو أسلوب مُشرق، وفيه قوة وجزالة وفيه من الشاعرية ما يُمكن معه القول إن الكاتب يحاول أن يقول شعرا خالصا ولا يسعفه الوقت ليجلس إلى موازينه وقوافيه، فاكتفى بأن ترسل أحيانا، وسجع أحيانا أخرى، وأتى في أحيان أخرى بالتعبير مزدوجا، ولا أظنه كان غريبا على عصره فهو ابنٌ بارٌ له، ومتقدم عليه أيضا بما أعطاه للكلمات من تجديد ومعان دقيقة.. وقد كان صاحب الرسالة حينئذ يتربع على عرش الأسلوب في مصر والعالم العربي ويكاد كلامه يكون شعرا(12) ومع هذا استطاع محمد عبد الحليم عبد الله، ومع مرور الزمن أن ينطلق منسابا ومتخلصا من كل قيد يحدّ من حرية الكلمة والجملة .

وجاء أسلوبه في الرواية مليئا بالاقتباسات والتضمينات مستعينا بأبيات من الشعر العربي والأمثال، كما يظهر تأثره واضحا بالقرآن الكريم، ويمكن للقارئ أن يلمح أمثال هذه الاقتباسات والتضمينات **فيما يلي** :

«وهكذا أصبح اليأس كالصريم (15) فاذا أنزلت على نفسك الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (16) أصبح سداد فرأى القصر قاعا صفصفا، (17) وإذا ماذا عساي أن أعمل بك.. أنا أستطيع عذابك بما هو أشد من الموت وأفظع ، إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما، (18) وذكرت النعيم الذي تقاسمناه زمانها و كيف استحال إلى عذاب تتجافى منه الجنوب عن المضاجع(19) « الآن حق عليك العذاب، فابك بكاء النساء ، لأنك لم تعرف طريق الرجال» (20).

و هكذا نجد كثيرا من مثل هذه التضمينات والاقتباسات من آيات القرآن الكريم وأبيات الشعر، وهناك بيت من الشعر لا أدري لماذا كان يلح عليه حتى ضمنه بعض رسائله الخاصة إلى خلصائه:

- ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
- فرجت وكنت أظنها لا تفرج

أهو شيء يرجع إلى معاناته الخاصة من الحياة والأحياء؟ أُرجح ذلك فقد احترق بلهيب الحياة، ومع ذلك كان لديه فرجة من أمل وثغرة من نور في قلب اليأس والعذاب.

وهناك بعض المفردات والتركيبات اللغوية التي استعملها الكاتب في روايته مثل : الصريم الرئام الأقيال وجماء الأصيل وغروب الغزالة وعدو مكاشح إلى غيرها من المفردات والتراكيب التي بات استعمالها غريبا ونادرا في أدبنا المعاصر. وهي على كل حال تدل على مقدرة لغوية لا يملكها معظم الناشئين في دنيا الأدب العربي المعاصر بل كثيرا من الذين تخطوا مرحلة النشأة إلى مرحلة التمرس.

لماذا؟

6- يبقى سؤال : لماذا آثر الكاتب أن يحفظ هذه الرواية بين زوايا مكتبه محجوبة عن الناس حتى ودع العالم أجمع؟ إنصافا للحقيقة فإني لم أجد جوابا شافيا حتى لدى المقربين إليه، وإن كنت أعرف شيئا عن ظروف مخاضها وكتابتها. ويبدو أن رهبة اللقاء بالقارئ آنئذ جعلته ينأى بها بعيدا حتى لا يُضار في صباه بالنقد القاسي أو الإعجاب الشديد، وقد كان رحمه الله حساسا تجاه نتاجه وقد قلت في البداية إنه كان يرفض طبع الكتاب الذي لا يعجبه مرة ثانية أبدا.

ولعله كان يخشى أن تشف هذه الرواية عن عواطفه ونوازع وجدانه، فإن كلمة «الحُب» ، آنئذ كانت غير مقبولة على نطاق واسع، أو هي كلمة محاصرة وتعني

دائما التساؤل، مع أن رجلا مثل المنفلوطي كان سباقا إلى الحديث عن الحب وترجم بعض قصصه مثل «بول وفرجيني».

إن رهبة اللقاء مع الجمهور وبداية النتاج والإثمار دائما صعبة وأرجح أن هذا هو السبب القوى الذي جعله يحتفظ بإبرسيم في مكتبه بعيدا عن الناس حتى توفاه الله .

ونحمد الله أن الناس ستراها و تطلع على ملامح البداية لكاتب أصيل أثـرى وجدان الشبيبة في مصر والعالم العربي بأروع القيم وأفضل المثل الإنسانية.

الهوامش

(1) القصة التي حدثني عنها هي «الوشاح الأبيض» و تجـري حولهـا مفاوضـات لاخراجها سينمائيا، و لعل للنقاد رأي آخر.

(2) هي قرية «كفر بولين» مركز كوم حمادة، بمحافظة البحيرة

(3) «إبرسيم» معرب وليس عربيا خالصا ومعناها الذهب. راجع المختار.

(4) المخطوطة، ص 1.

(5) ص 4.

(6) ص 7.

(8) ص13.

(9) ص27.

(10) ص73.

(11) ص82.

(12) ص 89.

(13) ص 47.

(14) يُمكن مراجعة مجلدات « وحي الرسـالة» و « آلام فرتـر» للاطـلاع عـلى نماذج الأسلوب.

(15) ص 5.

(16) ص 7.

(17) ص 15.

(18) ص 19.

(19) ص 4.

(20) ص 52.

صوت اليقين

ترك الفتى ثراء أهله وجاههم، وضرب عرض الحائط بأبهة الملك وعزة السلطان، وخرج هائما على وجهه، قاصدا هذه الأرض المتاخمة لوطنه، لعله يعثر على الشيء الضائع، الذي من أجله هجر الأهل والوطن؟.. لعله يعثر على الحقيقة .. إنه يبحث عن اليقين، وقد أضناه البحث في تجواله، ومر بتجربة شاقة في حلّه وترحاله،ومارس مع التجربة عملية اختبار قاس ليقينه وفكره وعقيدته، وبعد الجهد والعناء، وصل «سلمان» الفارسي، هذا العبد الزاهد، إلى الحقيقة في مدرسة النبوّة الأولى على يد محمد صلى الله عليه وسلم .. و كانت قصة يرويها الزمان ويحكيها التاريخ،وتسردها الأجيال..

وقد روى هذه القصة محمد عبد الحليم عبد الله بأسلوبه الساحر وفكره الصوفي الراقي فأجاد الرواية وأحسن البناء..

إحساس

وأحسبه قد كتبها استجابة لداع نفسي كان أقوى من المقاومة، وأكبر من الكتابة، إنه إحساسه الشخصي إزاء المحنة التي تعيشها البلاد، والفراغ الميت الذي يضرب بأطنابه في كل مكان، وإن كان الذي حفزه على كتابتها مباشرة، وفاة والده عبد الحليم عبد الله هذا الرجل الريفي الطيب، ذي الملامح السمحة، والغضون التي تحكي صراعا مستمرا مع الزمان في ريفنا الحزين.

ولعل هذا الرجل الوالد كان يمثل قمة من القمم التي عاش في ظلالها الرجل الابن «مُحمد عبد الحليم عبد الله»، ويشعر بالأمن والطمأنينة والسلام، وحين تسقط هذه القمة الشامخة، فإن هذا الشعور يتبدد ويتلاشى. شيخوخة الأب أو كبر سنه لا تعني أن الابن يستغني عن أبيه. فالابن يحس أبدا أنه محتاج إليه دواما ولا يستطيع

أن يتحمل فقده.. ولا عجب أن تغلف روحه مسحة تشاؤمية مستسلمة حين يرحل الرجل الأب، لا ينقذه منها سوى الولوج في أعماق التاريخ، فيعبّر عن مكنون ذاته وسر ضميره، و أساس يقينه من خلال هـذا الصـوفي المتبتـل، والزاهـد المجاهـد « سلمان الفارسي» رضوان الله عليه..

وإذا كان صوت اليقين قد بدا مُجلجلا في «الباحث عن الحقيقة»، فإن رواياتـه كلها إرهاصات بهذا الصوت في الحدود التي تسمح بها إمكانات العـرض الروائـي وملابساته. وهو ما يفسر لنا تسامى الحب وقصصه العذبـة مـن خـلال شخصـياته الذين يطلبون المثل الأعلى والأنموذج المترفع والعلاقة المتسامية وهي التـي يضـعها البعض تصنيفا رومانتيكيا ولهذا فإنه قلما نعثر على شخصـية تـنحط في علاقتهـا، أو تهبط في رؤيتها للحب والصداقة.. ولقد اعترف ذات مرة بأنه فشل في رسم النماذج الشريرة عبر رواياته، وإن كان هذا الاعتراف قاسيا، وظالما لنفسه أيضا:

«وكثير من الناس يعتقد أن صلاح المجتمع يكون بكشف عيوبه ومعالجتهـا. والكشف في الأدب علاج . وكثير يرون أن ترويج النماذج الطيبة يقضي على النماذج الرديئة. لكنه على كل حال فالكاتب نفسه نمـوذج المجتمـع. والعـين التـي ليسـت سليمة القاع لا يمكن أن ترى الأشياء مضبوطة. وأنا أومـن تمامـا بـالفطرة، ولعـلى آخذ الطرف الآخر من (زولا) فأرى أن الاستقامة تورث كما يورث الاعوجاج.

وأنا قد حاولت رسم نماذج شريرة فلـم أوفـق مثـل تـوفقي في العكـس. فمـثلا في الجنـة العذراء رسمت حمودة شريرا لكنه في نوعه لم يكن في عمق أخيه الطيب رضا ولا ثريا ولا والـدها عم جابر .. » تم يستطرد بعد شرح «والسلوك نوعان لكل شخص سلوك ظاهر وسـلوك بـاطن، والسلوك الباطن يظهر في الأعمال الفنية كما يظهر في الأحلام» (1).

أمثلة

وقد أرى هذا الحب الودود بين ليلى والطبيب في «القيطة» وبين رضا وثريـا في «الجنة العذراء» وبين «مختار وزوجته» في «شمس الخريف»، وبين «صلاح النجومي والبدوي السيد» في «للزمن بقية»، و بين «عبد العزيز وأمـيرة» في «بعـد الغـروب» وبين «وحيد وسوسن» في «سكون العاصفة» وبين «مجموعة شخصيات القصة التي لم تتم باستثناء زهيرة أبو علي» .

وفي المقابل قد تعثر على أمثلة رديئة تُمثل السلوك الخلقي المشين مثل حمودة في «الجنة العذراء» و «شكري» في «سكون العاصفة» و فهمى في «مـن أجـل ولـدي» وكذلك «فؤاد».

بيد أن الذي يهمنا هاهنا هو ذلك التركيز المتأصل على النماذج الطيبـة الوقـور والسمحة التي تأخذ الحياة سلوكا روحيا طاهرا وشفافا يعبر عـن نفسـيات مترعـة باليقين الخالص والإيمان المؤكد بالخير المطلق والفضيلة.

ومن هذه الناحية فإن محمد عبد الحليم عبد الله كان معـادلا منطقيـا لـلأدب الذي ساد زمنه، فقد اتسم الأبطال في روايات زملائه الكتاب بالكثير مـن الملامـح المعاكسة لملامح أبطاله.. وبينما كان معظم أبطاله يتسمون بالطيبـة الريفيـة والخلـق المتسامح الناشئ عن يقين إسلامي؛ نجد أن معظم الأبطال الآخرين لدى غيره مـن الكتاب إما شواذ أو منحرفون خلقيا أو مصابون بداء الانفصـام (الشـيزوفرينيا أو: الانفصام العقلي – Schizophrenia).. ونادر هو البطل الذي يمثل العقيدة التي تتحرك وفق خلق كريم وسلوك مقبول.

أخلاق

يقودنا هذا الموضوع إلى تساؤل عن أخلاقية الأدب، والحدود الفاصلة بينه وبين الوعظ، ولكننا نتحدث عن هوية شخصيات تنطق وتتحرك وتعانق الحياة بأسلوبها المتميز. ولنا أن نصفهم كما هم دون أن ندخل في دائرة التساؤل سالف الذكر.

إنها قضية تحتاج إلى دراسة منفردة، لنسمع صوت اليقين، كما هتف به الكاتب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله.

إن روايته «سكون العاصفة»، تعدّ من خير الأمثلة التي ناقشت قضية العقيدة من خلال المقارنة بين الإيمان المادي والايمان الروحي إن صح التعبير وهو في تلك المقارنة كان منصفا مع الطبيعة الانسانية والفطرة البشرية إلى حد كبير . وقد كتبها أيضا نتيجة معاناة أيضا انتهت بموت شقيقه التالي له «محمود»والد صديقنا زغلول إلى حد أن أهدى له هذه الرواية وصدرها بالفقرة التالية:

(.. لم تستطع آلام سبع سنوات من المرض أن تطفئ الابتسامة المطمئنة على شفتيك ولا أن تخمد روحك إلى أن قهر الموت الابتسامة، وبقيت الروح.. يوم نظرت من نافذتك عند عودتي لوداعك، وكانت الأشجار تشير نحو دارنا بأغصان عليها براعم في سبيلها إلى الظهور..

إليك يا أخي قصة قد قرأت بعضها .. أخوك) (2)ونطالع في هذه الرواية الطويلة(3) عددا من النماذج والشخصيات، يتصرف بعضها وفق العادات الموروثة، وبعضها انطلاقا من غرائزه، وبعضها يتصرف على سجيته، وبعضها عقيم!

للأستاذ عزت الذي يعمل في الشئون الاجتماعية ولدان أحدهما شكري،لذي ينطلق من غرائزه كترجمة لدراسته الفلسفة التي تنكر كل شيء لا يكون ملموسا، و

«سوسن»، تلك الفتاة الطبية الحالمة التي تختلف عن شقيقها في الإيمان بما وراء الطبيعة وتملك مزاجا رومانتيكيا رقيقا وشفافا .

وبينما يمثل الولدان تقابلا في المزاج والتفكير نجد الأب (عزت) يمثل التقاء المزاج المادي والإحساس الروحي، وتعانقهما لتكوين شخصية سوية تدرك أبعاد ذاتها، وموقع هذه الذات على خريطة المجتمع.. فقد اجتمع فيه حب الحياة، حياة إنسانية تشهق بالألم واللذة وتهتف بالرغبة والحاجة، وفيه اجتمع شوق الحياة إلى التسامي عن الواقع الحيواني باحتياجاته البيولوجية إلى الصفاء الروحي والاحساس الصوفي بطبيعة الوجود.

معادلة

ولا أحد يستطيع أن يُفسر سلوك هذه الشخصيات الثلاث بمعزل عن رؤية محمد عبد الحليم عبد الله للحياة وللواقع الإنساني عموما، إذ إنه كما قدمت ينطلق من إيمان يقيني أساسه العطاء الإسلامي والمنهج الديني الذي جاء به الإسلام في معادلة مضبوطة تلتقي عندها احتياجات الفرد البيولوجية مع أشواقه العليا إلى الصفاء الذهني والروحي والعاطفي.

ولنا أن نرى تأسيسا على ذلك بقية الشخصيات التي أوردها في ثنايا روايته «سكون العاصفة»، وكذا الأحداث التي وقعت خلالها .

فهي رواية يمتزج فيها واقع الوطن بأكمله، إذ تنتقل على رقعة الوطن العريضة من المدينة إلى القرية والعكس، وتحكي قصة الإنسان المصري « المثقف»،أوبتواضع أدق «المتعلم»، وكذا الإنسان المصري «الفلاح» الذي لم ينل حظا من أيهما،التعليم والثقافة على السواء. وبين هذين الإنسانيين أنصاف وأشباه تتحرك وتتابع سيرها المحتوم والقدري. ويحكم تصرفاتها جميعا، نظرة أديبنا إلى الحياة و الناس من خلال يقينه الذي انتهى إلى مرحلة تصوف صرفة (4) وسوف نراه هاهنا وفاء بنظرته تلك يتحدث عن أشجان المجتمع المصري المستمرة.. علاقة

الموظفين بالعمل وبعضهم بعضا، التفكير، الإقطاع وهموم الفلاحين، أزمة الغلاء وارتفاع الأسعار رغم انتهاء الحرب العالمية الثانية، قطاع الخدم، المرأة العاملة وأحزان زوجها، رواسب الملكية (الحكم الملكي في مصر)، أمراض البرجوازية المصرية وعفنها، الثأر، الخرافات، بائعات الهوى، وقبل كل ذلك وبعده مشكلة الفقر الأزلية التي تؤرق وجدان المصريين في أكثريتهم الساحقة .

عبء

ومن هذا الحشد الضخم للقضايا التي أشار اليها أو تعرض لها محمد عبد الحليم عبد الله في «سكون العاصفة» سوف نلمس ثقل العبء الملقى على عاتقة للخروج سالما من خندق الفن القصصي ـ لرواية جيدة كهذه الرواية؛ إذ إن هذه القضايا الكثيرة تحتاج إلى يد صناع لتستطيع السياحة بمهارة في بحر الفن العريض،ومن ناحية أخرى فسوف تثبت ديناميكيته وقدرته الحركية التي نفاها بعض النقاد عن أدبه، ولم يعترفوا بها إلا عندما كتب «للزمن بقية». ولذا كانت أفكاره المضيئة تعبر عن رؤيته المتقدمة للواقع والمستقبل جميعا :

(- نحن في زمن البنوك ، وعصر الائتمان يا آنسة، فكما نساهم بأموالنا في خلق الرخاء، يجب أن نساهم بتجاربنا في مجتمع متنوّر، ولن يتوفر هذا اذا بخل كل بماله، أو بخل بتجربته- لذلك فأنا لا أخجل من أن يعرف الناس حتى ولو من يشمتون بي- تفاصيل مشروع باء بالفشل) (5) ولا أظن كاتبا مصريا أصيلا سوف يعالج قضايا المجتمع المصري كما عالجها الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، إذ إنها عولجت على يده بطريقة فيها كثير من الفن والإبداع والصناعة التلقائية الجيدة القائمة على أساس من الحب الانساني والإخاء البشري الذي يكاد يبين من خلال سطوره.

ولنترك هذا جانبا وندخل إلى الذوات الداخلية للأشخاص الذين عرفنا بهم في «سكون العاصفة». ونحن لن ننظر إلى أي ذات إلا بقدر ما تحتاج إلى إثبات صلتها بيقين الكاتب ورؤاه.

قد تكون شخصية الفتى «شكري» ابن الأستاذ «عزت»، هي محور الرواية بأجمعها، ولكننا نعتقد أنها تقف متساوية مع غيرها من الشخصيات لتمثل رؤية معينة، وأسلوب حياة ومنهج سلوك متميزين.

المادة

إن سلوك الفتى «شكري» يمثل نموذج السلوك المادي الصرف، الذي لا يؤمن إلا بالحس فقط، و كل مناقشاته وأفكاره تدور حول المادة والحس، ولا تؤمن بشيء سواهما، لذا نستطيع أن نفسر علاقته «بكامل» هذا الزميل الريفي الذي يشبهه في السلوك تلقائيا وليس عن تفكير، و علاقتهما معا « بنرجس » الغانية، ثم علاقته التي أنهت حياته بالسيدة «ألفت»، هانم تلك البرجوازية التي تريد دائما أن تثبت أنها مرغوب فيها مهما تقادم عليها الزمان.

ومادام تفكير «شكري»، قائما على اعتماد المادة والحس، فإنه يتصرف من خلال الشبق الجنسي، الذي يسيطر عليه وعلى أفكاره.. ومن ثم فقد أفرغ كل ذهنه نحو إشباع رغبته الجنسية وحسب. لا يهم بعدئذ أن تسوء علاقته مع أبيه، وأن يتمرد على التفكير المألوف مهما كانت صحة هذا التفكير من الخطأ أو الصواب.

وبالطبع فان نهاية «شكري» كانت نهاية منطقية أو مادية أيضا فقد أفرط في العلاقة الجنسية مع السيدة « ألفت» هانم حتى أصابه المرض الذي أورده الى النهاية المحتومة وهي الموت.. وهنا لم تُجْدِ كل عوامل المعالجة الفكرية ولا الطبية، فقد كانت النهاية أكبر من الجميع، ولنتأمل هذا الحوار بين الوالد وابنه في مرحلة النزع الأخير:

« – ماذا صنع أذن أولئك الذين وضعوا حبل المشانق في رقابهم يا حبيبي.. لا تجعل الخوف يسيطر عليك فهذا هو دواؤك .

فأجاب المريض في نفسه :

– من أجل شيء آمن به وضع حبل المشنقة بيده وهو مطمئن، أما أنا فمثل الريشة التي طارت في جو مخلخل ثم هوت إلى قرار سحيق . لم أؤمن الا بحواسي وحدها.. . بالأشياء التي أفقدها الآن ... » (6).

نهاية

ونحسب نهاية «شكرى» ، هذه نهاية مألوفة في قصص أخرى غير «سكون العاصفة».

ففي رواية «من أجل ولدي» نجد تلك النهاية لـ « فهمي » زميل البطل، وفي رواية «خان الخليلي» للأستاذ نجيب محفوظ نجد أيضا تلك النهاية مصير « رشدي» ، شقيق « أحمد عاكف»، وإن تفاوتت كل شخصية في ظروف الحياة من حيث الملامح والسمات، فهي تتفق في طبيعة السلوك وجوهر الموضوع.

سوف تطل علينا شخصية «سوسن» شقيقة «شكرى »وهي كما قدمنا فتاة حالمة تعيش على الذكريات التي خلفتها الأم الراحلة و تتعلق بالأب «عزت»، تعلقا يصل أو يكاد الى مرحلة العبادة، فقد وجدت فيه البطل الذي تبحث عنه، ويوفر لها الأمن والطمأنينة ويعوضها عن أمها الفقيدة كل خير حتى تركها وراءه في أحضان العريس. ويعطينا محمد عبد الحليم عبد الله صورة ممتازة لتفكير كل من البنت والولد على ضوء حديث للأب يقول فيه:

«إن الذين شربوا السم من أجل شيء أحبوه كانت وجوههم خالية من تعبير الألم حين ماتوا بالسم». وعندما سكت الأب كانت صورة «سقراط» وابتسامته و كأسه الفارغة مرسومة في خيال الابن (7)، أما خيال «سوسن» فكان فيه «كليوبترا» مسجاة تحت الغطاء وعلى الوجه تعبير كأنه حلم لم يتوقف (8) .

ملفات

ويمثل الأستاذ عزت الإنسان المصري المهموم الذي يحمل بين أضلاعه إيمانا قويا ونظرة موضوعية للأشياء، فهو يستنكر بادئ ذي بدء استقبال الموظفين للرجل الكبير العائد من أوروبا بعد قضاء صيف، وعندما يتولى مسئولية إدارة المساعدات الاجتماعية يفتح جميع الملفات التي تقدم بها الفقراء ولم يبت فيها أمثال ملفات: فاطمة وهدان، وهاشم البنا، الشيخة نبوية. ثم يسمح لهؤلاء بأن يدخلوا عليه ويشرحوا شكاواهم وقضاياهم، بل ويصل مع «فاطمة وهدان»، إلى علاقة كادت تتوج بالارتباط الطبيعي، لولا نظرة أعمق وفكر أكثر نضجا و تمرسا. ومن جراء ذلك كانت «التريقة» والسخرية على أشدها. لقد هتف الموظفون فيما بينهم «لقد فتح هذا الرجل بابه على عكس سابقه، فليشرب حتى يشبع» (9) ، ولكن يبدو أن «عزت» أفندي كان يتحرك وفق مفهوم لا يقدر عليه إلا أقوياء النفس والقلب مع قسوة الزمن عليه بفقدان زوجته، وهو في أوج نضجه الحياتي، ومن المستحسن أن نزداد تعرفا على آرائه ومنهجه، عندما يناقش ولده «شكري»:

« - انصحك ان تكلف نفسك ولو مرة واحدة زيارة مصنع الزجاج.

ظهرت الدهشة على وجه الشاب ، وعاد يستوضح :

- مصنع الزجاج ؟ وما العلاقة بين الموضوعين ؟

فأجاب الأب وهو يوليه ظهره للخروج :

- لترى كيف تحول النار الرمل إلى مادة جديدة شفافة، لا تحجب ما وراءها.. الإرادة يا بني.. الإرادة يا بني..» (10) .

أُجراء

في مقابل أسرة «عزت» أفندي نجد أسرة «محسن بك، وهو عديل «عزت» أفندي و يملك أرضا في القرية بها أُجراء من الفلاحين، يبغضهم ويبغضونه. لماذا؟

قضت الأحداث أن يكون البغض هو القاسم المشترك، ولعل الإرادة الإلهية انتقمت منه أن جعلته عقيما، وزوجته عاقرا.. إننا في زمن يجب أن ننظر فيه إلى الدنيا على أنها مجموعة من البشر، لكن محسن بك لا يزال حتى بلوغه الخامسة والخمسين من عمره يروي شجرة النسب بماء الغرور. فما له إذن وما للقطاء؟» (11) ومن ثم فإن فلسفته عجيبة وهو يحلل حياتهم للأستاذ عزت، و كان هذا الأخير قد أبدى إشفاقا و تأثرا من أجلهم.

«لو أنني أتحتُ لك الفرصة لتقيم هنا سنة واحدة تتعامل فيها مع هؤلاء الذين تشفق عليهم لتغير رأيك بسرعة. نعم لتغير رأيك .

ثم عاد يكمل وهو يضحك :

أما سمعت عن قصة الكونت «تولستوى»، الذي سبّه الفلاحون في أرضه أيام القيصرية لأنه سقاهم ماء صالحا، وحجز أولادهم عن الحقول ليتلقوا العلم في الصباح؟! (12) ومع أنني لا أصدق أن «محسن بك» . يصل إلى مثل هذا الفهم وتلك الثقافة عن حياة « تولستوى»، فإنني أود أن أثبت هنا أن مُحمد عبد الحليم عبد الله متأثر إلى حد كبير بهذا الفنان النابغة في عصره، ولعل حُبَه الموادعة والمسالمة رغم كرهه للزيف والظلم، جعله ينتسب إلى فلسفه «تولستوى» بخيط من الخيوط،قوى وأصيل. و « تولستوي » كان فنانا ممتازا بحق وحقيق، ويكفيه أنه كان على درجة من النضج أوصلته إلى فهم الإسلام و جوهره الإنساني العميق، ورسائله مع الأستاذ الإمام «محمد عبده» في هذا الشأن مشهورة.

إن «محسن بك»، يُمثل الإقطاع الغبي، مهما أضفى عليه الأستاذ محمد عبد الحليم، عبدالله من صفات الثقافة وإدراك بعض حقائق التاريخ. ولك أن تتصور ردا جافا من «محسن بك» على فلاح ماتت جامو سته الوحيدة، ويعول ستة أولاد فضلا عن أمهم، ولك أن تتصور أوهام محسن بك ورعبه الدائم من شبح الفلاحين، كأنهم سوف يرثونه فهو عقيم ثم لك أن تحكم على تصرفاته تلك!

فراغ

سوف نلتقي بعدئذ بعديـد مـن الشخصـيات التـي تمثـل مواقـف معينـة في المجتمع المصري المعاصر بيد أن أقربها تماما إلى التناول شخصية ألفت هـانم، وهـي امرأة في قمة النضج الأنثوي، تمثل البرجوازية بعفنها وترهلهـا وترفهـا الزائـد عـن الحد، وتبحث عن شيء يملأ فراغها، الفكري والروحي والمادي ، فتستقطب اليهـا من يملأون هذا الفراغ..

مختار لاعب الكرة الشهير الذي كان في يوم ما طالبـا فاشـلا «طالـب مـزمن يعتبر أنموذجا للانفصال الحقيقي بين العضلات الحيـة، والشـعور الحـي ..» (13) ،وكان عليها أن تستنفده ثم تبحث عن آخر مثل «شكري» ، والذي لم يُطفئ شـبقها المستوفز حتى وصل إلى نهايته المحتومة.

«فقد كانت هذه السيدة تحس دائما (أنها شيء ناقص) وكان ذلك منـذ حداثـة سنها، وكانت تنقم على حداثتها، مستعجلة سنوات الشباب على أنه أوان المتعة، فلما بلغت حدود الحريق الذي تعيش فيه الآن احست مـن جديـد بأنهـا (شيء نـاقص) يزداد كل يوم تناقصا، فلم تكن تشغلها حقيقة المتع الجسمانية، بقدر ما كان يشـغلها نفسيا إحساس بأنها غير مرغوب فيها» (14) تتشابه ألفت هانم، مع «جليلة» هانم أو الست جليلة في روايته من «أجل ولدي»، وربما مع «فاطمة وهدان» مع الفارق، وإن كان يجمعهم الحرمان بالضرورة، وهناك امرأة أخرى تشترك معهن وإن كانـت تعيش في لبنان دون مصر، إلا إنها من النوع ذاته(15)،ربما طالع الكاتـب رحمـه الله حياة واحدة منهن عن كثب فأثرت في نفسه إلى حد الإلحاح عليها في أكثر من رواية، كما ألح عليه «مزلقان» قطار حلوان، وقطار حلـوان ذاتـه (16)، نلتقـي بشخصـية «الأستاذ بكير والسيدة سوزان» وهما يفجران قضية المرأة العاملة بوصـفها مشـكلة يعاني منها كثير من النـاس في زمننـا، وقـد طرحهـا الكاتـب عـلى أسـاس الانهيـار الأسرى والعلاقات الباردة بين الطرفين، والعواطف التي يتم اشباعها بطـرق غـير

مشروعة. ويلاحظ الكاتب مدى السعادة التي تبدو على الأستاذ بكير في يوم الأحد الذي تكون زوجته سوزان في عطلة، فتعطى للبيت لمسات جديدة من الاهتمام والرعاية تسعد بها زوجها وتنفحه شيئا مفقودا. ولكن هيهات أن تستمر هذه السعادة.. لماذا؟ لأن الأشياء شذت عن طبيعتها، وقد يرى البعض عكس ذلك تماما!

صورة «نرجس» تفتح الباب للقادمين وتبذل نفسها من أجل قروش يدفعونها، وأمها بالحجرة المجاورة الشيخة نبوية تعيش مع مواها ومنولوجها الذي يختلف تماما عما يجري بين «نرجس» والزبائن.. صورة مقزّزة لمجتمع متخلف ماديا وروحيا أيضا. والفارق شاسع بين الأستاذ عزت وهو يحنو على تلك الشيخة نبوية الضريرة، وبين الابن «شكرى» ، وهو ذاهب إلى «نرجس»، ليفرغ بين أحضانها عربدة الشبق!

ريحان

سوف أتجاوز عن شخصية «فاطمة وهدان»، الأرملة التي لم يسعدها الحظ وألجأها إلى الضمان الاجتماعي، وكتابة قصة لم تتم مع الأستاذ عزت: «أقصد أن كل انسان لا يتاح له ما يناسبه لكن الذي يناسبه يذهب لغيره .. وكأنه شيء مقصود» . (17)

«يا زارع الريحان حول خيامنا لا تزرع الريحان لست مُقيمُ»

وهذا البيت أكثر انطباقا على ما جرى بين «فاطمة وهدان» و «عزت أفندي» ولكنه لا يعنينا بالأهمية التي يهمنا به حياة شاب مثل (وحيد) أو « كامل» و لنبدأ بالفتى « كامل، فقد ورث من المواريث ما أثقله، ولم يدفعه للأمام فقد ورث العادات الرديئة والقضايا التافهة التي مازالت تشد الوجدان المصري في بعض المناطق وتعوقه عن التطلع إلى أداء دوره بموهبة واقتدار ..

«آخذُ كفني وأذهب إلى أعدائي مسلما نفسي إلى كرمهم حتى يعود إلينا جو الصفاء، ولكنني كنت أفطن أخيرا إلى أنني مطلوب بعد أبي، وأني المظلوم لا الظالم .. وإنني لأعيش بعد ما فعلت وكأني في عداد الأموات إذا أطقت أن أقيم في القرية..» (18) ومن الحوار التالي ندرك كم هي مواريث عفنة ، وكم هي مشكلة معقدة أيضا:

«... ولماذا لا تترك الريف بدستوره الدامي ، وتعيش أنت وأخوتك في المدينة، فسأل ضاحكا لكن في مرارة :

والأرض ؟

قلت : أجرها:

فأجاب في نفس الأسف : إنها لن تكون مؤجرة .. انهم سيعتبرونني هاربا مهزوما، وستكون هذه الأرض إما غنيمة حرب وإما أسلاب قتلى» (19) •

مغامر

سوف أترك «كامل» الذي لم يجد في البحث والدراسة إشباعا وطريقا للخلاص، ووجد السلوى لدى «نرجس»، وأمثالها إلى الفتى «وحيد» وهو قريب لعائلتي عزت أفندي ومحسن بك. وهو طراز من الشباب يصح أن نسميه «بالمغامر» الذي لا يعوقه شيء عن تحقيق هدفه، أو الشروع في تحقيق هدفه، وان لازمه الفشل المحبط، وهو نموذج للتجربة بفشلها ونجاحها معا.. وقد خاض كثيرا من التجارب التي أوصلته إلى التمرس واكتساب حنكة حياتية جعلته إنسانا يختلف تماما عن قرينه «شكري»، الذي انتهى نهاية مؤسفة بالموت.

وتعدّ شخصية «وحيد» من الشخصيات المتكاملة فنيا، والذي يستطيع المرء أن يتعايش مع همومها وأشجانها، وخيالها أيضا، فهي الشخصية الديناميكية أو الأكثر ديناميكية من شخصيات سكون العاصفة، وان كان الأساس الروحي لديها غير مفهوم و غير متبلور كما نجده واضحا لدى الأستاذ عزت، ومع فشله المتعدد

في كثير من المشروعات التجارية لعدم الخبرة وتصادمه مع نماذج غير أهل للثقة فإن شعاره الذي كان يحركه «يجب أن ننسى الهزائم» (20) كان بلسما لنفسه المشروخة أو التي يصيبها الشرخ في بعض الأحايين . وهو يعترف بأن الممارسة كانت طريقه الطبيعي وعم المعاناة والجهد العنيف « فلأول مرة عمت في الماء الحقيقي .. وعانيت الجهد العنيف من عملية العوم، وعذبت الذين علموني..» (21) هناك شخصيات لا تملك المقومات الإنسانية ولا الملامح البشرية، ولكني أراها تستحق التوقف والتأمل إذ إنها مأساة تجري تحت سمع الزمان و بصره، وللأسف فإنها لم تحل حتى الآن، ويبدو أنها سوف تبقى كذلك زمنا طويلا. إنها ملفات فاطمة وهدان وهاشم البنا.. والشيخة نبوية، ولكن ليسمح لي القارئ أن أحيله على الرواية، وهناك يستطيع التأمل والاستبطان (22) .

تحليل

نستطيع بعد ذلك أن نقول إن الكاتب قد اعتمد على التحليل النفسي الكثير من هذه الشخصيات التي أشرنا اليها، وكان في تحليله هذا يصدر عن يقينه الذي ظهر بوضوح في خلال مناقشته قضية الفلسفة المادية والإيمان الروحي الخالص،رأيه الخاص في ذلك الإيمان وتلك الفلسفة. وقد يبلغ قمة التحليل الفني والإبداع الروائي في الفصل السابع والعشرين حيث اتسم تحليله بالعمق خلال جو درامي ممتاز .

إنه عبر عن يقينه- الذي توهج تماما فيما بعد على صفحات «الباحث عن الحقيقة» تعبيرا جيدا مهد لتقديم رواية رائعة، ستظل نقطة ضوء باهر في سجل التاريخ، وأعني بها الباحث عن الحقيقة التي سبقها «سكون العاصفة»، لتأتي عاصفة في عالم ممتلئ بالأتربة والقاذورات، وحق للعاصفة أن تذرو كل ذلك ليبقى السطح طاهرا ونقيا.

الهوامش

(1) من حديث أجراه معه فاروق شوشة لتلفزيون الكويت عام 1967 .

(2) صفحة الإهداء في رواية سكون العاصفة .

(3) أطول رواياته حجما (حوالى أربعمائة صفحة من القطع المتوسط)

(4) كما في « الباحث عن الحقيقة».

(5) سكون العاصفة ، ص 147.

(6) سكون العاصفة . ص 392 .

(7) عكس الكاتب هنا خيالا مخالفا لسلوك كل من «شكرى» و «سوسن» فإن تصرف «سقراط» كان قمة الإيمان بالعقيدة المجردة والفكر غير المنظور، و «كليوبترا» تمثل المرأة التي تبحث عن مجد مادي ملموس. وهي لفتة ذكية على أية حال.

(8) «سكون العاصفة» ص 118 .

(9) سكون العاصفة ص 94 .

(10) ص 108.

(11) ص 20 .

(12) 125 .

(13) ص 307

(14) ص 323

(15) راجع قصة « القبس الخالد» ، في مجموعته الأخيرة « جولييت فوق س طح القمر ».

(16) لقاءات « فؤاد » مع «زينب» في « من أجل ولدي »، و « عزت» ، مع « فاطمة وهدان» ، كانت مرتبطة بمزلقان قطار حلوان الذي يشق شريطه شارع المنصور ابتداء من « باب اللوق».

(17) سكون العاصفة ص 269.

(18) سكون العاصفة ص 239.

(19) سكون العاصفة ص 173 .

(20) سكون العاصفة ص 105

(21) سكون العاصفة ص 159

(22) . راجع الفصل الثامن 86/ 95.

نشيدُ الوداعِ

1ـ الغدر والوفاء:

لقـد كـان حييـا وخجـولا، و كـان ورعـا وتقيـا. أضـناه القهـر الـرابض في الطرقات، والحزن الجاثم على الجباه. فضجّ داخله كثيرا، وصاح وجدانـه بـالرفض والاحتجاج، وتمنى ذلك اليوم الذي يرى فيه نفسه راضية مطمئنة سلسة ومشـاعره رخية الإيقاع. بيد أنه انتقل من زمن الى زمن، ومن عالم إلى آخر. أراد أن يكون ملكا للإنسانية جمعاء، فأكره على النظر داخل دائرة ضيقة، .وأراد أن يعيش الزمـان نـاعما فأجبر على المعاناة.

« أهكذا في موسم القطاف

تحترق الغلال والثمار ..؟

كاتب يسفح دمه شهادة لك يا مصر وقربانا،

ليس على أرضك يا مصر أطيب منه نفسا، وأرق وجدانا و أطهر نفسا...

« لكن أين هو .؟ لقد مات في موسم الحصاد..

أيقن خلال البحث أن الزمان له بقية، وأن مصر في وجدانه و كيانـه وخلايـاه! ثـم راح يفتش في أعماق المهزومين عن السر الدفين للهزيمة، وأخـذ يـزرع في فـؤاد المحبطـين شموعا وضاءة بالصدق والمعاناة والطموح الحقيقي: البحـث عـن الحقيقـة ضرورة لابـد منها، والدنيا يجب أن تسمع لصوت الناس في هذه الفـترة.. فـترة الهزيمـة السـوداء التـي يعيشها الوطن و يعيش فيها كل مواطن حزين.. أواه.. يا نهاية المطاف» (1).

انزواء

لم يستطع محمد عبدالحليم عبدالله أن يلعب دور المهـرج في سـيرك النفـاق والزيـف والارتزاق، فآثر الانزواء داخل روحه، يشدو لمـن يعرفـه ومـن لا يعرفـه. يغنـيهم

أحلامهم وأشجانهم، ويربت عليهم في ظل الأسي! ولكنه لم ينوّمهم تنويما مغناطيسيا، ولم يقدم لهم «البرشام» جاهزا ليُغيّبهم ويُلهيهم، وإنما وقف يذكر لهم الأمس الضائع والغد المجهول بصراحة ووضوح، وقال لهم: ها هو الدواء «المر».. ومن أراد التداوي فليرتشف بلا تقزز وليمتص دون خوف!

كان مُحمد عبد الحليم عبد الله يسير على الدرب الصعب صامتا في المظهر مضطرما في الجوهر، ويرسم لنفسه هدفا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، ولم يلجأ إلى تلك الفوازير والأحاجي التي تقدم في هذا الزمان و تصلح للتفسير على وجوه متعددة.. وفي لحظات اليأس انشق على ذاته بالحزن والأسى قائلا: «خذها ببساطة .. فكلنا بقر ساخط» (2)ويبدو أن حاسته السادسة كانت قبيل الوداع أكثر إرهافا وإنباء واستشرافا للمجهول، فما تركت مجالا للرؤيا إلا واستنطقته أسراره ودخائله، واهتدت بما يرجع به البصر، وإن كان ينقلب في كثير من الأحيان خاسئا وهو حسير!!

تركيبة

لقد أصمته المأساة المروعة التي حلت بمصر في ستينيات هذا القرن، وأورثته قهرا رهيبا وغما مستديما وهمّا ثقيلا حتى أصبح كل شيء هنالك مقهورا ومغمورا بصبر «أيوب على بلائه.. «كل شيء هنا مقهور أو مغمور.. هكذا بدت الدنيا لعيني الدكتور أمين بعد أن نزل من سيارة أجرة آتية من مصر الجديدة، تجاه تمثال نهضة مصر الواقع في منتصف الشارع الرحب المؤدي إلى الجامعة» (3) تركيبة هائلة: القهر والحذر ومصر الجديدة وتمثال نهضة مصر والجامعة وعمر ولّي، هو عمر الدكتور أمين الأستاذ على المعاش، إنها تركيبة متناقضة، تورث القلق على أقل تقدير، و منذا الذي لا يستطيع أن يقر بذلك؟

كان محمد عبد الحليم عبد الله يكتب هذه الكلمات وهو يشارف الستين.. كان في السابعة والخمسين من عمره تقريبا. مع أنه كان يبدو لي في الأربعين فقط، وجهه مشرق الطلعة لامع، بسمته الريفية الطيبة لا تبرح محياه، لكن داخله كان يضطرم بشتى المشاعر .. سوف يودع الحكومة رسميا بعد ثلاث، ولكنه لم يكن يعلم يقينا أنه سيودّع الدنيا كلها بعد أيام! ومن ثم كانت حاسته السادسة صادقة إلى حد بعيد وهو يرسم صورة الدكتور أمين المحال على التقاعد، و يكشف داخله وأشواقه و أمانيه ويطرح على «مددها» تذكارات الزمن الماضي بكل أشجانه وخيالاته:

« لم يبرح الدكتور مكانه في التو . بل ظل واقفا كأنه يذكر شيئا.. ومن الغريب أن هذا الشيء لم يكن سوى نفسه. ماذا سيذكر؟ إن الناسين دائما يجدون ما يذكرون.. لكن ماذا يفعل الذين لا ينسون و تذكرهم ليس إلا تجديدا للفكرة.. وها هو ذا يفعل مع تمثال نهضة مصر ما يفعله الآن مع نفسه، يحملق فيه كأنه يبحث عن شيء جدي. وهكذا يحملق الليلة في ذاته!»(4)

حنين

فليتذكر ما شاء له التذكار.. ولكن أهو الوداع الذي يشدنا شدا دون رحمة أو هوادة؟ يبدو لي أنه كان يشعر به كذلك حقا. حكى لي تألمه وحزنه على ما يجري هنا وفي العالم المحيط، ولكن النظرة الرحبة كانت تطمئنه وتدفعه للتصبّر والتحمل.. إنها فلسفة الفلاح المصري، يبذر الأرض ويقول : اللهم ارزقنا وأطعمنا ثم يروى الأرض ويسمدها ويعزقها و يواليها شهورا أو أياما متتالية بالصبر الجميل في انتظار العطاء السماوي السخي.. هكذا كان يسير في تطلعه للمستقبل ورصد الحاضر الراهن..

وفي وحشة المدينة واصطخابها كان يفزع إلى روحه التي عهدناها دائما.. حنين إلى داره هنالك في القرية، وإلى الطرق والمماشي الزراعية والجلوس تحت أشجار

السنط وتفيؤ ظلالها الضنينة.. إنه في تذكاره مشدود إليها مع وجوده في عالم المدينة الهدّار:

«لم يكن الدكتور أمين ناسيا ما ينتظره في البيت، لكنه رأى أن زيارة الأضرحة هي المقابل الطبيعي لزيارة المعاهد والمعارض. ففي الأولى يستعرضون الموت، وفي الثانية يستعرضون الحياة. وذكر اللذة العميقة التي كانت تفوح من أطراف الملاءة المعطرة بالصالون وأمه تتلفف بها قبل زيارة ضريح في القرية مع أن القرية تحت ملاءة ظلام كبيرة. لا يدري ماذا جمع بين الموقفين» (5) لم يمنعه ورعه وتقواه وإيمانه بالخير المطلق أن يشعر بما حوله ويضجّ صاخبا مقهورا في محيطه. ولم يخجل أن يذكر ان القرية عندنا ملفوفة في ملاءة ظلام كبيرة. هذا التذكار نوع من التقوى أمام الله والتاريخ، ها هي الدنيا أمامه توشك على الانفصال عنه، ويوشك هو على الرحيل منها.. لقد كان «متقززا»، من كل ملامحها القائمة، ولكنه لم يكتف «بالتقزز»، والبصق على التراب، بل أقر الحقيقة كما هي في مقابلة لا تنفصل عن إيمانه ووجدانه.. لقد كان وفيا بحق لمنبته.. وهو منبتنا جميعا، ولَمثواه وهو مثوانا جميعا، إن شاء الله..

«إن الوفاء لا مساومة فيه، فالوفي يمسح ظهر الهرة كما يمسح ظهر البنيّة،تختلف الدرجة لكن العنصر موجود» (6) فأين الوفاء في أوان المساخر؟ بالتأكيد فإن العثور عليه في أيامنا صعب ويحتاج إلى كثير من المجاهدة والمعاناة، وما أشقهما على المرء وحيدا في عالم شرس!

٢ ـ الخوف والشجاعة

سألته مرة قبل وفاته بسنوات، لماذا حاصروك نقديا وإعلاميا؟ ضحك وقال: لا عليك. فهذا عالم غريب، وأرجو أن لا تعكر صفوك بما ابتلينا به، و كنت يومها ما زلت بعيدا عن نكد التشاؤم والمحنة. وألححت عليه في لقاء آخر .. فقال: يا ولدي

لقد كرهوا كل من يتكلم. ولقد تكلمت كثيرا، وقلت كثيرا وناقشتُ كثيرا، وما رضيت الزيف في حياتنا الفكرية..

ضريبة

وتوالى الزمان ورحل عنا وأكدت الحوادث من التجارب الخاصة أن ضريبة الرأي أكثر من مضاعفة.. إنها حياة الكاتب ومصيره.. ولكنه قدر.. وقدر مختلف السّمات متحد المكونات.. إنه الموت، إما نفيا أو كدرا أو كمدا أو محاصرة، كأن لسان الحال يقول :

« إني أعيش الرعب يتبع خطوتي والخوف ينعس جفنه بردائي » (7)

ولكن شيخنا كان يُقاتل في صمت وفي ظل الرعب والخوف، ومزق الصمت ذات يوم فكتب عن شيء اسمه «الضمير الأدبي» مقالا ضافيا ومرّا وملتهبا تحدث فيه عن هزيمة اليقين إزاء الزيف ورثي ذاته مع اثنين من أدبائنا ماتا كمدا أو قهرا وهما « أنور المعداوي » و «على أحمد باكثير»..

«الفلاسفة لا يخافون الموت».. من قال هذا؟ .. لا يهم فقد قاله قائل: «إلهيا» ، كان أو غير «إلهي»، لكن كثيرا من الأحياء يخافونه لأنهم لم يصلوا بعد برياضة النفس إلى حد المعرفة بأنه تكملة لظاهرة الوجود..

أو هو في أبسط صورة حالة تجعلنا نكف عن نداء اسم من نحبه. لكن موت غير العاديين من الناس يحيى في داخلنا أشياء ليست عادية أيضا. فنحس نحو الموت بشيء ما من العداء وإن كان ملفوفا بالخضوع المطلق والتسليم الفكري والمادي بأن ما حدث على أنه يغيض ليس هناك مفر من حدوثه. ولا يلبث هذا أن يجرّ وراءه ذيلا من الذكرى الحافلة بكل ما هو مجرد من الغايات.

ويُتابع اللحن الحزين حتى آخره:

«إذا كان جيل الثلاثين في العمر قد عمل من أجل نفسه ديجة وان جلنا (وليسامحه الله) قد تلفع بسكون. ووقف على باب محكمة الضمير ليذرف دمعة واحدة ثم.. عندما يخلو إلى نفسه يقهقه مكفرا عن الدمعة!! لكن الرحى لن تكف عن الطحن. ولن يكف الطحين عن التساقط .

ولترحم السماء كل الذين لم ترحمهم الأرض» (8) .

صفوة

الطريق طويل. والمسافة مرهقة. والشقة بعيدة. ولكن الخوف على مستوى الصفوة النيرة يختلف عنه عند الكثرة الغالية. انه المصير الجماعي مرهون بواحد ممن لا يعرفون الخوف، أو يعرفون مقابله وهو «الشجاعة».

وكان بإحساسه المرهف يرى «الخوف»، معشّشا في كل الزوايا والخلايا، ولا يبرح الأدمغة والقلوب بسهولة. إنه الأزمة الراهنة والهزيمة السوداء الواقعة،والمعاناة البادية في زمان القهر ! وعندئذ شعر بخوفه وهو خوف الصفوةمن الخوف الذي يعشش و يضرب بجذوره بعيدا في أرض الأزمة والهزيمة والقهر!

لقد شمل الخوف مواهب كثيرين وقدرات كثيرين وأوردهم هاوية البؤس واليأس والهوان. وكانت التضحيات أكبر كثيرا من تضحيات المقاومة الإيجابية والفورية..

وظاهرة الخوف في زماننا ظاهرة مشتركة تحكمها وتؤثر فيها عوامل شتى. ولعل أردأ أنواع الخوف هو الخوف من النطق بالكلمة الصحيحة والصادقة. لأنه يكلف كثيرا. قد يذهب الرجل منا إلى ميدان القتال ويعرف ان الموت واقف هنالك بيد أنه يدرك للحظة أن النجاة محتملة. أما النجاة في مجال الرأي فهي شيء مستحيل تماما، لأن ظروف التخلف الحضاري والفكري المعيشة، وضيق الأفق البادي على وجوه الأغبياء والحمقى والمهرجين يجعل المرء يتردد ألف مرة قبل أن يخطو .. أقصد

قبل أن ينطق.. واذا نطق بالكلمة فهنا تقع الواقعة.. ولا غالب الا الله، ومن ثم تقاس الشجاعة في هذا الزمان بمقدار القدرة على صياغة الكلمة والنطق بها في عالم الأغبياء والحمقى والمهرجين!

ذات

وقد حاول محمد عبد الحليم عبد الله رحمه الله أن يصوغ أفكاره ومفاهيمه عبر الذات الإنسانية في صورتها العامة دون أن يركز على ذات خاصة، وأكد في بداياته الأولى صوت القيم النبيلة الخالدة على مر الزمان: إنها قيم الحب والوفاء والإخلاص والتضحية و ..إنها قيم لا تفنى ولا تذوب مهما تقادم الزمان ومرت الأيام بل تبقى حية ومتألقة ووضاءة.

بيد أن هذه القيم أخذت حقها من التناول لديه، وفي النسيج العام لحكاياته، و كان عليه بفعل الظرف الراهن لبلاده أن يقف في مكانه ويجيل البصر فيما حوله، ويطل من جديد على دنيا وطنه، ثم تعلو الدهشة وجهه، و يفغر فاه أمام الواقع المحطم والذليل الذي وصلت إليه دنياه بعد هزيمة مروعة! هل هنا مجال الحديث عن القيم المجردة؟

إن قيمه الخالدة قد تحطمت على صخرة الذل الراهن، ولكن نفسه الخيرة تصر على الاستمساك بهذه القيم وتلك المعالم الوضاءة. نراه يتحدث عن الهزيمة ويحكي عن ليلها الطويل، ويأمل ويتفاءل بل ويعتقد أن في الزمان بقية للحوار وإعادة الكرّة ومجاهدة النفس والغير معاً.

هزيمة

ينخذل «صلاح النجومي» أمام جبروت القهر الطاغي والأخطبوط المتفرع والمستشري في كل ركن من أركان الدنيا حوله ولكنه لا ييأس بل يتعلق بالأمل أو بخيط من الحقيقة (9) راح يروّض الواقع بكل أبعاده، وهي أبعاد سيئة في

مجموعها، نادر هو البعد الطيب، وقليل هو البعد المفيد، وصعب هـو البعـد المـؤثر بالنور والخضرة، ولكنه آمن بوجود هذا البعد النادر والقليل والصـعب، وجـده في «محمد الجنـدي» (9) و وجـده في الأسـتاذ «فكـري» صـاحب المكتبـة الرابضـة في الشارع المحترق وكذا نجله(10) ومن قبلهم في «صـلاح النجـومي» الـذي رافقـه الإحباط و تألـب عليـه الزمـان في خـلال مسـيرته، ومـن قبـل هـؤلاء في «سـلمان الفارسي» الذي واصل المسيرة وتمرد على جميع المعوقات والمحبطات (11)

ثمة شيء يهز كيان كاتبنا. إنه الذل الرابض في الطرقات والواقف في صلافة و تحد وإرهاب . ولابد من التسليم بوجـوده أولا ثـم البحـث عـن وسـائل المقاومـة وكيفتها .. ومن سيقاوم؟

خوف

لقـد رأي بإحساسـه شـيئا مـا، دفينـا وراكـزا في الأعـماق، لا يبرحهـا ولا يفارقها،إنه الخوف. تحدث عنه كثيرا، وكرهـه كثـيرا، وأدرك سره بشـجاعة: «قـال الدكتور: هل أنت خائف؟! ولا تنس أن شعار من أحـبهم كلمـة لا خـوف» (12) وقال فتحي سالم، يشرح للدكتور وللآخرين رأيه في هذه المسألة: «للخوف حشرات صغيرة كأنها النمل، تختار الأعالي خوفا من الغرق لتبحث عن شق تسـكنه ولـذلك فهي تختار القلوب على شرط أن تكون القلوب مشقوقة، وقلبي غير مشقوق» (13).

فتحي سالم، أعمى البصر، لكنه مستنير البصيرة يتحدث عـن الخـوف كعـالم نفس، درس كثيرا من حالات النفس في مواجهة الخوف ومعايشته ورأى أن القلب عنصر مهم يتوقف عليه بقاء الخوف ونموه، ولو ظل القلب سليما لمات الخوف مـن الخوف! ترى هل نحن كذلك؟

قال الدكتور أمين وهو يخاطب «منى المنشاوي»:

«- أخطأت يا مني فالتاريخ يقول: إن كل الذين قادوا شعوبا إلى تحقيق المعجزات كانوا لا يخافون. واليد المرتعشة لن تحكم الإصابة، والشفة المرتعشة لا تبين ما نريد. على أن أعظم ما يعبر عنه الخوف برعشاته هو «القلب» (14) .

والقلب هنا هو الأساس، ومركز الانطلاق.. لا يستطيع القلب المشروخ أن يصمد في مواجهة القهر أو يقاوم ظلامه. ونحن في هذا الزمان أحوج ما نكون إلى قوم ذوى قلوب صحيحة ومتينة وقوية لا ترتعد فرقا في ساعات المواجهة، ولا تموت هلعا في لحظات المجابهة. ولقد أثبت التاريخ أنه مع الذين لا يخافون والذين يبيعون أنفسهم فداء لعقائدهم وقربانا وهي قيمة إسلامية أصيلة عاش بها المسلمون الأوائل وفتحوا على هديها الدنيا.. كان أبو بكر يقول: «احرص على الموت توهب لك الحياة» (15) وكان الناس يقولون في تفسير شجاعة المسلمين وإقدامهم ما رأينا قوما الموت أحب اليهم من الدنيا إلا هؤلاء يعنون المسلمين».

عفريت

الخوف إذن هو آفتنا في هذا الزمان الأجرب. صنعناه بذاتنا وخلقناه بأنفسنا وصدقنا وجوده بلا تردد وظللنا على باب دارنا قابعين لا نتحرك. وكلما طغى الهول نطل راعدين زاعقين هاتفين شاتمين، و نعود سراعا الى داخل الدار. إنه العفريت الذي تربينا عليه صغارا. يقولون لنا: احذروا المشي في الليل هناك عفاريت في الطريق. والعفاريت تركب من يخرج من داره. وهناك الغول والمارد وأبو عباءة.. وفي عهد الشبيبة فإن مناظر العفريت والغول والمارد وأبو عباءة مازالت ماثلة في الذهن والعيان، لا تبرح المخيلة ولا تفارقها. فمن يعطينا الشجاعة للتمرد على المخيلة والذهن والزمان؟

وهكذا نسهم جميعا في خلق العفريت حتى يأتي الرجل الشجاع فيدخل هذا المكان وينادي بأعلى صوته: «يا عفريت» وتقشعر أجسام من بالخارج وهم يسمعون

النداء. وتردد الصدى الأماكن ثم يعود المنادى دون أن يخرج إليه شيء .. يـا منـى.. اسمعي منّي .. لو أن المنادي اعتقد أنه سيخرج إليه لخرج إليـه فعـلا.. لـذلك فـلا تخافي من أي نمل.. لا تخافي من الخوف.

أرسلت «منى المنشاوي» ضحكة ذات درجات مثل سلم موسـيقي، وانتظـر الكل ماذا ستقول. فقالت:

- لكن الحقيقة أنني أخاف من النمل. من الممكن يا سادة أن أبيت وحدي في مدينة بور سعيد في لياليها الحالكة وباستطاعتي أن أقف في مكان ما و أرقب معركة حربية. وأنتم تعلمون أن زوجي لم يعد من ميدان المعركة وقد مضـى عليه ما يقرب من عام ولكني أخاف.. ماذا تريد منّي إذن يا دكتور أمين؟! سمعت أن الأسد يخاف من صياح الديك فهل معنى هذا أن الديك أشجع من الأسد؟ (16).

عموما فإن الخوف هو نقطة المسئولية في الموضوع بصرف النظر عمن يكـون أشجع الديك أو الأسد.. فالمسألة مسألة سلوك و يقين. «حاولـت أن أحـدد نقطـة المسئولية. النقطة الحقيقية التي تدور حولها مأسـاة حياتنـا التـي تنمـو كأنهـا نبـات متحجر، فلم أر مسئولا عن ذلك كله إلا الخوف. أنا خائف من أمي وخائف عليها وأمي تبادلني نفس الشعور» (17) .

فمتى نتخلص مـن الخـوف و نأخـذه بكامـل هيئتـه و نقـذف بـه في البحـر العريض لتهدأ الـدنيا مـن حولنـا ويعـود الزمـان يعـزف أنغـام الحـب والسـكينة والسلام؟ متى؟

٣ـ الصمت والبلاغة:

و لم يكن تساؤله الساخر عن خوف الأسـد مـن صـياح الـديك مجـرد نكتـه ضمتها صفحات روايته التي لم تـتم ولكنهـا كانـت لحمـة في نسـيج عـام متشـابك

ومتصل لا يمكن فصم عراه بحال من الأحوال عن الواقع الراهن عندنا. لقد صاح العرب كثيرا يوم الهزيمة وقبله وبعده. أطلقوا العنان لحناجرهم وحاربوا على الهواء ولوحوا بقبضاتهم السمراء على شاشة التلفاز ومن خلال الأثير. ويوم وقعت الواقعة، وحل الذل بدارنا كانت الفجيعة مرة ورهيبة.. وتولد القهر عاريا مجردا بلا خجل ولا حياء، وكان الذل والقهر المعادل الموضوعي لمرحلة الكلام الكثير الصمت الرهيب!

ركام

وللأسف لم تعمر هذه المرحلة طويلا فقد عادت مرحلة الكلام بقرون استشعار طويلة تسبح في ركام اليأس الراهن دون توقف أو معارضة.. وكأن محمد عبد الحليم عبد الله كان يعيش بيننا الآن فيرى الكلام الأجوف والنكات التي تباع في السوق السوداء. الكلام الأجوف : أحلام يقظة و «هلوسة» مجانين، شيزوفرينيا مستحكمة. والنكات: محاولة بدائية لمقاومة تلك الأحلام والهلوسة و«الشيزوفرينيا»، البغضة. هل كان يؤذن في «مالطة» ؟ «رجعت ريمة لعادتها القديمة، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا» (18) .

كأن أهل «مالطة» عندنا لا يحبون أن يستيقظوا من الموت.. كأنهم استمرءوا سياط القهر في الطرقات «لو أننا نشعر بالزمن لضقنا بأعمارنا ذرعا» (19) ليست هكذا الحياة ويجب أن يستيقظ أهل «مالطة» على الحقيقة المرة. وينبغي أن يؤثر فيهم صوت الله عذبا ونقيا وطاهرا فيقومون إلى نداء الله بالصلاة والجهاد.. إرداتهم تعبق بشذا الطهر والطيبة والاخلاص.. يجب أن يتوبوا عن الكلام الأجوف، ويصوموا بالصمت والسكينة قربانا لله وفداء للوطن.

«أنا شخصيا أصبحت أضيق بكل كلام في هذه السنة تغيرت نظرتي للبلاغة،وإذا كانت البلاغة أن يُناسب المقال المقام فإن المقام الآن يرفض كلام.. الصمت في هذه الأيام بلاغه» (20)

حذر

الكلام .. الكلام .. أف من الكلام! متى نحتاج الكـلام؟ ومتـى نحتـاج الى البلاغة؟.. البلاغة الصمت.. الصمت أبدا، لأن كل ما قلناه كان عيبا وخطأ وجرما فاضحا.. وهل سنظل صامتين أبدا؟ فلنتكلم بحـذر، ولـيكن صـوتنا متناسـبا مـع مقتضى الحال همسا وصراخا. يجب أن نتحـول إلى هامسـين حـين يقتضـــي الزمـان والمكان أن نجأر بالشكوى عالية وداوية، فالدنيا الضائعة في بلادنا لم تعد تحتمـل .. يجب أن يبعث « الفلاح الفصح» من جديد.. ومن الغريب أننا جميعا نقف بالصمت إزاء ما ينبغي أن نصيح عنده. ونفعل العكس عندما يجـب أن نصـمت أمامـه. وإن خرجنا عن هذه السنّة فهي «النكات» الملفوفة بالسخرية.. ولكنها يـا سـادة لم تعـد تجدي في هذا الزمان:

«عندنا أشياء يجب أن تقص هـذه الأيـام . الشـعور المسترسـلة مـع المشـاعر الفاترة.. وطرف كل لسان لا يعرف الا الهمس .

سأل زهير :

- ❖ أي همس .. فهناك أشياء لا تقال الا همسا!
- ❖ أحيانا يكون الهمس مرضا يصيب الألسنة.

- مثل الأصبع « المدوحس» (21)

. .. تمام يا «مني ، السياسة ضد العبادة في شيء فريد. فالعبادة تتطلب الهمس أما الأخرى فتطلب الصوت العالي.. ونحن حـين نهمـس لله حتـى بالصـمت فإنـه يعرف ما نقول. أمـا الهمـس الآخـر فـما أكثـر أخطـاره» (22) كـان يكـره الهمـس المستخزى.. يرى أن الدنيا من حوله يجب أن تكون بدقائقها أمامه.. عند حدقتيـه.. بكل تفاصيلها البسيطة والمعقدة فمن حقه أن يعرف. ومن حقه أن يسال ومن حقـه أن يجاب عليه.. لماذا؟ لأن القهر الواقف عاريا في عـرض الطريـق يجـب أن يـزول. ولن يزول إلا بالرغبة الجماعية والفكر المتكامل والجهد الشامل.. ولـيس بالوصـاية

والتسلط والملاحقة. الدنيا المفتوحة هي المجال الطبيعي لأن يتنفس المرء أنسام الحرية الحقيقية التي يتحول فيها المخلوق إنسانا منفردا في خصائصه، و يعرف لماذا يتحرك، ولماذا يقف وكيف يتصرف؟ يتحول إلى «عنترة بن شداد» وليس إلى «عنترة بن زبيبة» .. يعرف أن الابل والشياه ومضارب عبس بقية ذاته وبعض حياته. ولا يكون هو بعضا من إبلها وغنمها و واحدا من أوتاد خيامها! عندئذ فقط يمكنه أن يدفع حياته عن طيب خاطر ، وأن يحرز نصرا على بقية القبائل المغيرة ويعود مكللا بالفخار .. «ويك عنتر أقدم».

٤ـ التمرد والاحتجاج:

أهكذا نقف بالحيرة والتيه والضياع أمام الأمر الواقع ؟ أهكذا يدور الزمان و نحن في مكاننا نسير ولا نقطع الطريق؟ كأننا بلغة العسكر ننفذ الأمر القائل: «محلك سر»؟

فلتكن البداية.. ولنبدأ الخطوة الأولى المثل الإنجليزي يقول: طريق الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.. ليتحول المنظر الساخر إلى منظر يتسم بالوقار والجدية «وأخذ المنظر وقارا يناسب وقار هذه الفترة التي بدأ فيها شبابنا يرمي «بمضغة»القار من فمه باصقا إياها على الأرض الدامية مع كلمات ونكت كانت توزع معلبة في السوق السوداء» (23) .

بداية

ولكن هل كان يعتقد أن تلك البداية كانت صحيحة، لسنا ندري تماما.. لعله كان يرى فيها بشير تمرد إيجابي يتحقق فيما بعد بالحركة الحرة الطليقة نحو المعاناة الجادة والتمزق على الأرض الضائعة والزمن الأجرب والأيام السوداء. بيد أنه بشعور المتنبئ الذي يستشرف الغد بوجدان طاهر، يرسم الطريق ولا يجزم بالنتيجة، لأنه يثق في شيء واحد هو العمل المستمر والمتواصل للتخلص من العار...

« وقال في نفسه : الصحراء قطعة من أرضنا فكانت ضدنا. فهل نحن خناها أو هي التي خانتنا؟ السنوات القادمة سترينا كل شيء»(24). إنه يتراوح بين اليأس والأمل والشك واليقين، ويكاد داخله يصرخ بالشكوى المرة والمناعة فيلجأ منسحبا إلى الزمن القديم ويعرج على الزمن الراهن مفلسفا كل زمن منهما وواصلا الأول بالآخر :

«.. و كأن أحدهما يقول للآخر :

بكى صاحبي لمارأى الدرب دو نه — وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

قلت له لا تبك عينك إنما — نحاول (ثأرا) أو نموت فنعذرا

فردّ صاحبه قائلا : ألا تعرف عدونا؟ بعضهم يقولون « العدد في الليمون، لكن من ذوى الفهم يدركون تلك النظرية القائلة « الله خلق الكثرة لكى يخلق من بينها «العبقري» (25).

أمراء

مع مسحة التشاؤم البادية في ثنايا فكره يتفاءل بالعبقري المنتظر الذي سيأتي على يديه الخلاص والسكينة.. ثم ينطلق من ثم إلى الغضب الجارف إلى الصراخ العنيف.. إلى الموت.. إلى الدم يجري أحمر قانيا على الأرض التي ضاعت وخناها .. ويضرب المثل بأبناء فيتنام والمسيح عليه السلام .

« أمراء الاحتجاج في الدنيا هم أتباع بوذا الآن.. آه يا «منى»...

وحتى مواطنهم لا تخلو من رومانسية.. والموت أشد الأشياء احتياجا إلى الشعور الرومانسي. ونحن محتاجون للموت في مصر. محتاجون لأن ما نتخذه وسله إلي غاية، ومحتاجون إليه من جديد وعلينا الآن أن نعاود الموت بطريقة جديدة فقد قرأت عن رجل مشهور قوله: « إن موت المسيح كان قمة الرومانسية.. فيه قبلة

كاذبة من «يهوذا» ، وفيه موت غير كاذب وابتسامات. وهناك في آسيا قال رجل آخر: يجب ألا نخاف الموت إلا إذا أخافنا استبدال ثوب بثوب. نظرية بسيطة ولكنها تحتاج إلى تدريب» (26) ..

الموت إذن هو غايته، والطلب هو الاحتجاج الممكن والوحيد في الزمان الأجرب، وهو خير تعبير عن أماني المحرومين والمقهورين والأذلاء.. ولنتأمل سلوك هذا الفتى الريفي البسيط وهو يعبر عن احتجاجه إزاء القوة التي لا يقدر على مقاومتها «رميت نفسي من فوق سقيفة دارنا احتجاجا على علقة أخذتها من أمي» (27) وهو احتجاج على أية حال خير من الذل المستخزي!

5ـ الحرب والسلام :

الدنيا تشتعل. وجهنم تصهد بالهجير «كان هناك رجل يعتبر برميلا من الخمر الرديئة هو «هتلر» وهذه الخمر عبئت منها زجاجات صغيرة هربت إلى بعض أركان الدنيا. هذا الرجل كان يعد للخريف والشتاء في العالم مدافئ جهنمية.. زجاجات من هذا البرميل أخذت منك زوجك.. و زجاجات منه أيضا فصلت بيني وبين « جوليا» صديقتي» (28) .

برميل

وهذه الزجاجات مازالت تنتفخ تلقائيا في زماننا وتزداد انتفاخا مع مرور الأيام بما يستجد من نوع السلاح ومن نوع المحاربين ومن اضطرام الصراع بين القوي الذي يزداد قوة، وبين الضعيف الذي يحاول أن يقوى. المغالبة قائمة. ولغة البارود سائدة. وبرميل الخمر الرديئة تسكر «يهود» في أرضنا فلا يتورعون عن مواصلة القهر وممارسة الإذلال والتهام الوطن جرعة جرعة كيما يتم الهضم جيدا وبسهولة. السلام عندئذ يتحول من ممكن إلى حلم ومن حلم إلى لا شيء.. وتتحول المأساة إلى دم يجري لا يتوقف إلا عندما تنتصر الإرادة القوية والحازمة.. والمثابرة.

لقد أشعلوها ويجب أن نطفئها بالضحايا. والبقاء مرهون بالفداء والقربان. فالحرب كنظام كلي لا يمكن أن تخلو من مآسي فردية أو جماعية حتى وإن كانت صورة مضبوطة لم تقع فيها إلا أقل ما يمكن من أخطاء (29) .

نموت. نموت ويحيا الوطن. هتاف حلو ورائع وجميل أطلقه الجيل العجوز. كان هذا الجيل يفور بالحيوية والشباب والازدهار.. يحيا سعد.. عاش سعد.. مصر ـ يا أم البلاد.. أنت غايتي والمراد . حكايا الأمس الضائع تتجدد اليوم وستتجدد في الغد وكل غد مالم يأت السلام. فالسلام حتى يومنا ظل غريبا وبعيدا.. انتظرناه طويلا ولم يأت.. ومازلنا ننتظر ولكن كيف سيأتي؟

« وإننا في الحرب نعرف كيف نعرّف كلمة «السلام، كما نعرّف في العراء كلمة «المسكن». وأنا هنا أحس أن السلام كلمة بسيطة. هو مسح العرق بالمنديل أو كشطه عن الجبين ببعض الأصابع. لكن ليس هذا عندما يسكت أزيز الحرب. لا بل عندما يسكت أزيز الغليان في نفس المظلوم بالرضا وفي نفس الظالم بالخضوع» (30).

الحب. السلام. لهما ثالث: هو الغليان. قد يحدث الغليان عندنا فقط. وقد يحدث بيننا وبين «يهود»، التي تحاربنا وتقهرنا بالصلافة والغطرسة والغرور، ولكن متى يزول هذا الغلبان؟ إنه يزول يوم نتخلص منه أولا .. ونصيح جميعا: لا ظلم. الرضا قائم والسخط بعيد. نستطيع ساعتئذ أن تتحرك في خفه ورشاقة على الطريق الآخر لتصفية الغليان الباقي. فعبء السخط قد سقط. يمكن يومها أن نسحب الأرض من تحت أقدام «يهود»، وتستقر الصورة الصحيحة للسلام.. و «التاريخ الواقف هذه الأيام أمام سبورة الزمان يبدو كمدرس مرتبك يكتب ويمحو حتى تستقر الصورة» (31) ويجب أن نحترم هذا المدرس الذي يدون على سبورة الزمان كل تصرفاتنا وسلوكنا: بأن تقاتل دفاعا عن الأرض عن الصحراء الضائعة على

الضفة المقابلة والتي تربض فوقها «يهود» تنتظر الفرصة لتنقض على ضفتنا الباقية إذا استطاعت! ولا يخالجني شك أنها تحلم بذلك ! فمتى نزرع في رأسها الحقيقة؟

انقطاع

إلى هنا ينقطع نشيد الحرب والسلام.. لأن صاحب النشيد بدأ يُودّع.. بدأ يمدّ يده مسلّما ومفارقا.. فقد أوشك على الرحيل.. وها هي النغمات الأخيرة .

6ـ تنويعات الحزن:

الدكتور أمين: فارق العمل الرسمي، يمارس حياة المعاش بعد الستين، ينظر إلى العمر الضائع حزينا، و كأنه غير مصدق يعزيه أن أعماقه ملأى بالصفاء القروي ورحابة الريف، يذكر أيامه الخوالي أيام كان طفلا.. يشم عطر أمه وهي تتلفع بملاءة سوداء كأنها في ظلام الليل. والأم تهفوا لزيارة ضريح أو وليّ في طرف القرية .. أهي «كفر بولين» (32) تبعث في أحلامه ويقظته؟ أهو الرباط المقدس بين الميلاد والتذكار؟ يطل الدكتور في سهوة من الخلق والزمن وتحت جنح الليل على قبة «الجامعة»، العمر الناضر والزمن الأخضر والحياة المتدفقة.. ولكن.. لكل شيء أوان يا دكتور أمين!

بصيرة

«فتحي سالم: أيها الأعمى قسا عليك الزمان! سلبك نعمة البصر ولكنه منّ عليك بنور البصيرة: تجاوزك القدر، ولكنك رحت تتجاوزه في سباق عظيم. غالبت الدنيا وانطلقت بروحك وجسدك إلى الغرب، وعشت في «باريس»، ورحت تنهل من معين المعرفة ما شاء الله لك.. ولكن أين من سلموا في سباق القدر؟ جرحك يا «فتحي» وعشت بجرح ينكأه التذكار، ومع هذا تعيش عليه، ومن خلاله تبحث عن شيء. عن الوطن. عن المستقبل .. لا أدري.. ولكن «أبا هشام» وضعك القدر« مازورة»، في «لحن» لم يتم !

فهمي سكر: لا أستطيع يا فهمي إلا أن أحبك وأحترمك وأقدرك، فأنت حقيقة هذا الزمان عارية تسير في الطرقات وتدب على وجهها دون تزويق أو نميق.. أنت الحقيقة التي ينبغي أن تسود وتتقمص كل الأشخاص. تدرّس في مدرسة البنات، وتشجب نفاق الست الناظرة. وتحتج على الدنيا كلها؛ ألم ترم نفسك من فوق سقيفة الدار احتجاجا على علقة أخذتها من أمك؟ ولكن حظك يا سيد «فهمي» رديء! تحتج ولا تستطيع أن تقاوم، تصرخ ولا تجد من يصغي. لعل حكمة الدكتور أمين تجدي نفعا، ولعل «منى المنشاوي» تشبع فراغا كبيرا لديك. ولكن القدر احتج علك ووقف بك دون أن تتحرك كغيرك من الرفاق.

انتظار

منى المنشاوي: يا شبابا أهدره الزمان بلا استثمار. وانتظارا طال ويطول بلا حساب.. ذهب زوجك الفتى لم يعد حتى الآن. كنتما فرخي حمام في نضرة الربيع وشوق المخاض.. ولكن ماذا يجدي الحديث بصيغة «كان»؟ تعملين بالصحافة وتستمعين إلى أستاذك القديم الدكتور أمين وتستمعين إلى أستاذك القديم الدكتور أمين وتسعديه بالمفاجأة مع «فتحي سالم»، وتمارسين ملء الفراغ مع فهمى سكر،وتنطلقين في مرح ودود مع من يريد النسيان. بيد أن النسيان لا يأتي هكذا أني طلبناه. فقد زرع هتلر مدافئه الجهنمية وعلينا أن نستدفئ رغبنا أم كرهنا.

زهير أبو على: يا حادي القلب والرأس. لا أستطيع أن أمضى معك. كأبي أراك وأنت تخاطب أباك بائع السلاح والخراب الذي يقنعك بعدالة مسعاه وشرف مرماه.. وأنت أنت ضائع، تعيش في الفراغ. وتملأ أيامك بالبحث عن «بائعات الهوى»، والذهاب الى جلسة الدكتور أمين؟ أليس هذا عجيبا؟ العهر والحكمة في إناء واحد!

زوج مني المنشاوي : يأيها الغائب الحاضر .. يامن لم يسمع صوتك أحد، أنت البطل والحكيم والمحتج وصانع السلام.. سيّان أن تكون حيا أو ميتا . وسيّان

أن تكون قد متّ كمدا أو فطيسا أو مجانا أو بحثا عن الذي يأتي ولا يأتي.. فالكل في انتظارك حتى تأتي شهيدا أو قديسا .. فمتى سوف تأتي؟

حزن

.. أنغام الحزن مؤثرة وعميقة.. كلها حزينة أسوانة مجروحة.. ولذلك أيضا تغلب على أدبنا نغمة الحزن (33) لأن جيل محمد عبد الحليم عبد الله جيل الأحزان.. ويبدو أن هذا الجيل كان يعتقد أن الحزن بالمرصاد له وحده. ولكنه أي الحزن امتد إلى زمننا وجيلنا. فماذا بعد يا حزن ؟

7ـ الوداع :

توقف القلم عند مدافئ هتلر الجهنمية، وسقط العدل على المداخل. ونظرة في أفق الزمان المحيط جعلت منك يا أبا هشام، كتلة نور تتوهج في كل اتجاه. تضيء للموتى والغرقى والمحرومين والتائهين، ولكن أنى لهذه الكتلة أن تضيء وتظل مشتعلة وقد مضى عليها سبع وخمسون سنة لم يحاول فيها أحد أن يحيطها بما تستحق من تكريم وتقدير.

هكذا تموت غريبا عن دارك وأنت تسعى بالنور. ويقف الواقع أمامك صاغرا مرتعشا، فقد انطفأت شعلة الحياة ومات اللسان المتوهج بالبلاغة والجمال، وأعلن للناس في التاسع والعشرين من «حزيران» دائما حزيران- يونيو 1970 :

.. الوداع .. الوداع للصحبة والصحاب والأحباب.

الهوامش

(1) ديوان «الليل والفرسان» لفدوى طوقان.

(2) «للزمن بقية» .

(3) قصة لم تتم، ص 78 .

(4) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(5) قصة لم تتم، ص 82

(6) قصة لم تتم، ص 111 .

(7) من ديوان «كلمات غضبي» للشاعر عبده بدوي.

(8) راجع مجلة الهلال، العدد الأول 1970 ص 10، 13 .

(9) راجع «للزمن بقية» و «الباحث عن الحقيقة» و «الدموع الخرساء»

(10) السابق.

(11) نفسه.

(12) قصة لم تتم، ص 88

(13) قصة لم تتم، ص 91

(14) قصة لم تتم، ص 92

(15) عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد.

(16) قصة لم تتم، ص 93

(17) «من أجل ولدي»، ص 136 .

(18) «من أجل ولدي»، ص 31

(19) «من أجل ولدي»، ص 36.

(20) قصة لم تتم، ص 94

(21) « المدوحس» اصطلاح عامي في مصر يعبر عن الجـرح الـذي لا ينـدمل. وكلما قارب الشفاء ينكأ من جديد وتتكرر الدورة .

(22) قصة لم تتم ص 100

(23) قصة لم تتم ص 112 .

(24) قصة لم تتم، ص 86.

(25) الصفحة السابقة .

(26) قصة لم تتم ص 127

(27) قصة لم تتم ص 128

(28) قصة لم تتم، ص 186.

(29) قصة لم تتم ص 128 .

(30) قصة لم تتم ص 179

(31) قصة لم تتم ، ص 109

(32) قرية الكاتب ومهد صباه.

(33) من حديث عام 1967 لتليفزيون الكويت أجراه معه «فاروق شوشه».

ببليوجرافيا
محمد عبد الحليم عبد اللّه

ولد في 20 من مارس عام 1913م من أبوين ريفيين فقـيرين في قريـة «كفـر بـولين» مركـز كـوم حمـادة بمحافظـة البحـيرة، ولـه مِـن الأشـقاء ثلاثـة: محمـود وعبدالوارث، وشقيقة واحدة: إحسان.

تلقـى التعلـيم الابتـدائي في الريـف ثـم التحـق بتجهيزيـة دار العلـوم سـنة 1928م، و عاش في مدينة القاهرة وسنه لا تتجاوز الخامسة عشـرة. وكـان لـذلك تأثير كبير على نفسه إذ ترك حضن والديه ليحيا وحيدا في المدينة الكبيرة، حتى تخرج من دار العلوم العليا سنة 1937م .

التحق موظفا بمجمع اللغة العربية وظل به حتـى وصـل إلى درجـة مراقـب عام، وبذلك أتيحت له عـدة فـرص منهـا الإقامـة الدائمـة في القـاهرة والاتصـال بمراكز الثقافة ورجالها. والقراءة المستمرة حتى ظهر نتاج ذلـك سـنة1947 في أول عمل روائي له وهو «لقيطة» .

كان له إنتاج قبل ذلك لكنه لم ينشر ، ولم يحـاول الكاتـب نشــره ومنـه قصـة طويلة لاتزال أوراقها عنده واسمها « غرام حائر» ، كتبها في سـن الثامنـة عشــرة . (راجع الفصل العاشر في هذا الكتاب).

ألف بعد ذلك رواية «بعد الغروب» ، فأسـهمت في شـهرته. وتكـاد تكـون ترجمة ذاتية له.

نال جائزة الدولة في الأدب سنة 1953 عن رواية «شمس الخريـف». سـافر إلى أوربا لزيارتها سائحا في صيف سنة 1954

زار كل البلاد العربية تقريبا.

ترجمت بعض أعماله الروائية والقصصية الى عدة لغات منها: الألمانية والإنجليزية والروسية والفارسية والفرنسية.

حولت بعض أعماله إلى قصص إذاعة وسينمائية وتليفزيونية.

كان عضوا باتحاد الأدباء ونادي القصة ولجان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب..

تزوج في 4 نوفمبر 1954م وله ولد (هشام) وبنتان (أنوار وحنان).

كان أدبه موضع دراسة من المستشرقين الفرنسيين والروس واليوغوسلاف وغيرهم وقد نشرت بعض دراساتهم مترجمة في مجلة « المجلة، المحتجبة .

أقيم له ضريح ومتحف بمشاركة محافظة البحيرة، يضم المتحف مكتبة حافلة، ويقع الضريح والمتحف في مدخل كفر بولين.

مؤلفاته

الروايات

(1) **لقيطة «ليلة غرام»**:

❖ دار الكاتب المصري، فبراير 1947 ، 224 صفحة ، كفر بولين والقاهرة.

❖ حولت إلى فيلم من اخراج أحمد بدر خان باسم «ليلة غرام».

❖ نال مُخرج الفيلم جائزة الاخراج، كما نال الممثل حسين رياض جائزة أحسن ممثل لأحسن قصة.

❖ نالت الجائزة الأولى من « مجمع اللغة العربية في1945 .

❖ نالت الجائزة الأولى من وزارة الشئون الاجتماعية «لأحسن فيلم»

❖ ترجمت الى اللغة الفارسية.

(2) **بعد الغروب**:

❖ دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» 1949م.

❖ حولت إلى تمثيلية اذاعية بإذاعة القاهرة .

❖ نالت الجائزة الأولى الممتازة من وزارة المعارف«التربية والتعليم» لأحسن قصة.

❖ ترجمت الى الانجليزية.

(3) **شجرة اللبلاب دار مصر للطباعة 1949م.**

❖ حولت إلى فيلم سينمائي من إخراج السيد بدير باسم «عاشت للحب»

❖ ترجمت إلى الإيطالية، والانجليزية في الجامعة السورية ومعها دراسة.

(4) **الوشاح الأبيض، دار مصر للطباعة، «مكتبة مصر» 1950.**

❖ تعاقدت على إخراجها مؤسسة السينما .

(5) **شمس الخريف، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» 1951.**

❖ حولت إلى تمثيلية إذاعية بإذاعة القاهرة من إخراج أحمد زكي .

❖ حولت إلى مسرحية مثلت على المسرح العسكري.

❖ نالت جائزة الدولة في الأدب 1953م، في صورتها الأولى .

(6) **غصن الزيتون ، دار مصر للطباعة « مكتبة مصر »، مايو 1955م.**

❖ حولت إلى فيلم من إخراج السيد بدير.

❖ ترجمت إلى اللغتين الصينية والانجليزية .

(7) **من أجل ولدي، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» ، يناير 1957م.**

❖ حولت إلى تمثيلية إذاعية بالقاهرة من إخراج عبده دياب.

❖ حولت إلى مسرحية مثلت على مسرح التلفزيون.

❖ ترجمت إلى اللغتين الصينية والانجليزية .

(٨) **سكون العاصفة، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» يوليو 1960م.**

❖ حولت الى فيلم سينمائي من إخراج أحمد ضياء الدين.

❖ نشرت على حلقات مسلسلة في مجلة «الجيل» المحتجبة.

(9) **الجنة العذراء، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» ، يناير 1963م.**

❖ تعاقدت على إخراجها مؤسسة السينما.

❖ حولت إلى تمثيلية إذاعية بالقاهرة .

❖ حولت إلى قصة تليفزيونية و أذيعت في شهر رمضان 1391=1969م.

❖ ترجمت إلى اللغة «السنسكريتية»، أشهر لغات الهند.

(10) **البيت الصامت، دار مصر للطباعة « مكتبة مصر » ، 14 إبريل1966م.**

❖ نُشرت مسلسلة في مجلة المصور .

(11) الباحث عن الحقيقة ، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» ، نوفمبر 1966م.

❖ حولت إلى تمثيلية إذاعية بالقاهرة .

(12) **للزمن بقية، كتبها بعد الهزيمة مباشرة 1967م، دار مصر للطباعة « مكتبة مصر » ، إبريل 1968م.**

❖ مثلت مسلسلة في إذاعة «صوت العرب»، 1969م.

(13) **قصة لم تتم، آخر ما كتب ولم يكمله، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر ،يونيه** 1971م .

ب – المجموعات القصصية القصيرة :

(١) **النافذة الغربية، دار الفكر العربي. حاليا دار مصر للطباعة «مكتبة مصر»** 1954م ،وتضم 14 قصة قصيرة.

❖ نالت قصة ابن العمدة من المجموعة الجائزة الأولى لأحسن كاتب قصة قصيرة عام 1948 من مؤسسة دار الهلال .

(2) **أشياء للذكرى، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر»، 1956م. وتضم 12 قصة قصيرة .**

(3) **الماضي لا يعود، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر»،1956م، وتضم 19 قصة قصيرة .**

❖ حولت إلى تمثيلية إذاعية بالقاهرة ،تحت عنوان: الآنسة الصغيرة .

❖ حولت إلى تمثيلية تلفزيونية بالقاهرة، تحت عنوان: الآنسة الصغيرة.

❖ وترجم منها إلى اللغة الألمانية قصة: فرصة للسعادة والي الفرنسية: الأكثر سعادة مع دراسة .

(4) ألوان من السعادة - دار مصر للطباعة «مكتبة مصر» 1958م، وتضم، 18 قصة قصيرة.

❖ وحوّلت إلى تمثيلية إذاعية بإذاعة القاهرة: قصة النفس الكبيرة.

❖ وترجم منها إلى اللغة الألمانية قصة: شريط النور، وقصة ألوان من السعادة، وقصة حبيبي الأول. وإلى اللغة الفرنسية قصة: ثمن المسئولية .

(5) الضفيرة السوداء، دار مصر للطباعة « مكتبة مصر»، 1965م،وتضم 14 قصة قصيرة.

❖ وقد حولت إلى تمثيليات إذاعية بالقاهرة: قصص: شمعة على الطريق، الأشياء النفسية، القربان.

❖ وحول منها إلى تمثيليات تليفزيونية بتلفزيون القاهرة: قصة: عاطل بالوراثة، وقصة: الكنز .

(6) حافة الجريمة، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر»، 1966م،وتضم، 17 قصة قصيرة .

❖ حول منها إلى تمثيلية تليفزيونية: «حافة الجريمة» .

(7) خيوط النور، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، 1967م، 17 قصة قصيرة.

❖ حول منها إلى تمثيلية إذاعية بإذاعة القاهرة قصة: الوديعة.

(8) أسطورة من كتاب الحب، دار مصر للصناعة مكتبة مصر، 1968م، وتضم 17 قصة قصيرة.

❖ حول منها إلى تمثيلية تليفزيونية قصة: الست كريمة

❖ وإلى تمثيلية إذاعية قصة: الست كريمة .

(9) جولييت فوق سطح القمر، دار مصر للطباعة «مكتبة مصر»، 1970م، وتضم، 19 قصة قصيرة .

❖ وكانت جولييت فوق سطح القمر آخر مجموعاته القصصية التي ظهرت قبيل رحيله.

(10) الدموع الخرساء قصة مطولة نشرت بعد رحيله على جزئين في جريدة «الأخبار» القاهرية 1970م

❖ وأعيد نشرها في مجلة «الكتاب» العراقية،1971م.

❖ (زوّدني بمحتوي هذه الببليوجرافيا الأستاذ زغلول محمود عبد الحليم عبد الله، ابن شقيق الكاتب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله)

خاتمة

من الصعب أن أزعم أن «الغروب المستحيل» أو قصتي مع مُحمد عبـدالحليم عبدالله، قد أوفى بما كنت أريد، من عرض وتحليل لسيرة الكاتب الراحل محمد عبـد الحليم عبد الله. ومن الصعب أن أقول إني أوفيت هذا الكاتب مـا يسـتحق في تلـك الفصول التي عرضت لبعض جوانب حياته و نتاجه وتركت الباقي أرضا خـلاء لم يسكنها أحد بعد!

لقد كان حلمي الأول أن أكتبها سيرة قصصية تبدأ بقولي «وُلِد الكاتـب في.. وتنتهي بـ مات الكاتب في... »، ولكن حلمي تبـدد إزاء الصـعوبات التـي يعانيهـا الباحث في العثور على سيرة واضحة ذات أبعاد و حوادث تصلح للسرد والحكي.. ونحن المصريين نبتنا من الطين المصري نعتز كثيرا بحياتنا وكفاحنا، ومـن ثـم فإننـا نحتفظ بتفاصيل سيرتنا لأنفسنا وحدها، و نترك التاريخ يجري خلفنا باحثا ومُعَنّى!

وليت الأمر اقتصر على ذلك وحسب، بل إن الأمر يُصـبح أكثـر صـعوبة إذا وجد المرء نفسه يخطو طريقا مهجورا في غمرة الليل وحيـدا! فمحمـد عبـد الحلـيم عبد الله كان حظه غير مرض مع النقاد المصريين؛ فلـم يتنـاول أدبـه إلا قلـة قليلـة، ومعظم هذه القلة تناوله بألسنة حداد لحاجة في نفـس يعقـوب. ربـما تغـيرت هـذه الظروف الآن، وربما تغيرت نظرات تلك القلة القليلة، ولكن المرء سوف يجد نفسه بالضرورة وحيدا يعاني مخـاطر السـير في الطريـق المهجـور، وهـو محاولـة الدراسـة الكاملة والشاملة لأدب هذا الكاتب.

وقد كنتُ أحلم بـأن أحـاول عـرض تلـك الأفكـار الخاطئـة والـرؤى غـير الدقيقة التي روجت عن أدب هذا الكاتب، كانتقاصه مثلا لأنه كاتب «رومانتيكي عاطفي» فإنني كنت أود لو عرضت للرومانتيكية مذهبا ثوريـا توافـق ظهـوره مـع

الثورة الفرنسية، وكان مولـده ذا أثـر في توجيـه الفكـر والـرأي نحـو الثـورة عـلى الأوضاع البالية وتجاوزها، وبناء مجتمع جديدة يقوم على دعائم ديمقراطية وإنسانية أفضل، وكنت أود أن أنفي عن هذا المذهب ذلك الفهـم الخـاطئ والـرديء الـذي تشيعه بعض المدارس الأدبية في مصر و تفسر به الظواهر الإنسانية والطبيعية تفسيرا ماديا صرفا آثاره محزنة وسلبية على مستوى الرؤية والفن.

وإني لأزعم أن فهمنا القاصر للرومانتيكية الذي يدور حول النـواح وايـلام الذات، أشاع بعض الآثار السلبية غير العلمية حول فهم المذهب، وخاصة مـا ورد عند بعض شعرائنا المنتمين في معظمهم إلى مدرسة « أبوللو»!

ويستطيع القارئ أن يراجع كتاب «الرومانتيكيـة» ، للـدكتور محمـد غنيمـي هلال رحمه الله ليدرك كم نحن مخطئون في فهمها بسبب الفهم القاصر.

إن مُحمد عبد الحليم عبد الله نما، و كتفه بكتف الأستاذ نجيب محفوظ بيـد أن الزمان كان سخيا مع الأخير وهذا أقل تكريم ولم يكن كريما أبدا مع الأول، مـع أن المسيرة واحدة والعطاء متكامل بينهما.

ولعلى بهذه الدراسة أكون قد استطعت أن أفتح الباب أمام غيري ليتابع السير عـلى الطريـق المهجـور لاكتشـاف هـذا الرجـل مـن جديـد، الـذي يقـرأه الجيـل الجديد،وكل جيل يأتي، دون أن يفرضه عليه أحد أو يقدمه إليه ناقد. ولعلنـا نـذكر أن الطبعات الجديدة من كتب محمد عبد الحليم عبدالله، تطيـع أكثـر مـن الطبعـات السابقة باستمرار.

إن محمد عبد الحليم عبـد الله شـعلة أضـاءت في زمنهـا ولجيلهـا، وتضـــيء للأجيال الجديدة ففي أدبه ثراء إنسـاني يفيـد الإنسـانية في مصـــر والـبلاد العربيـة والعالم. ويجب أن تظل هذه الشعلة مضيئة وفاء لصاحبها ومن يكتب لهم.

وآمل أن يمنحني ربي فرصة الحركة والحيوية من جديد ، لأتابع ما بدأته.

والله ولي التوفيق ،،المجد في رمضان المعظم ١٣٩٣ ه أكتوبر ١٩٧٣ م

قائمة مختصرة بمؤلفات الكاتب

أولا- كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته ، 1427هـ = 2006م
- تيسير علم المعاني، 1427 هـ = 2006 م
- الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، 1428هـ = 2007م
- محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،1429هـ = 2009م ..الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، 1408هـ = 1987م
- المدخل إلى البلاغة القرآنية، 1428 هـ = 2007 م
- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،1430 هـ = 2009 م
- تطور النثر العربي في العصر الحديث، 1429 هـ = 2008م
- تطور الشعر العربي في العصر الحديث، 1431هـ = 2010م
- المدخل إلى البلاغة النبوية،1432هـ = 2011م
- الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق، 1436 هـ = 2015م

ثانيا- كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق- كفر الشيخ))

- وجوه عربية وإسلامية، 2008م
- الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) ، 2009م .الطبعة الأولى، دار الأرقم ، الزقازيق (مصر)، 1413هـ = 1993 م
- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، 2008م .الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، 1416 هـ = 1996م

- الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، 2009م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، 1418 هـ = 1998م
- روائع القصص النبوي: في رياض النبوة (4أجزاء). الطبعة الثانية، دار الصحابة، طنطا (مصر)، 2012م
- شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، 2008م

ثالثا- سرديات

- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، القاهرة، 1974م
- الحُب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، 1976م
- زمن البراءة: النيل بطعم الجوافة، الجزء الأول من السيرة الذاتية
- زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري، الجزء الثاني من السيرة الذاتية
- زمن الغربة: النيل لا طعم له، الجزء الثالث من السيرة الذاتية
- شغفها حبا، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة 1440هـ= 2019م
- محضر غش، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1440هـ= 2019م
- شكوى مجهولة، (رواية)
- منامات الشيخوخة، (قصص)
- الرجل الأناني (رواية)
- اللحية التايواني (رواية)
- الشمس الحارقة (رواية)

رابعا- كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد القاهرة

- عباد الرحمن وعباد السلطان،2011م
- الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، 2011م

- ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، 2011م
- تدبير المنزل ما بعد الثورة،2011م
- الضيافة والشهادة، 2011م
- عواصف الربيع العربي، القاهرة، 2011م

خامسا- إسلاميات:

- مسلمون لا نخجل (4طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، 1399هـ = 1979م
- حراس العقيدة (3 طبعات).الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1399 هـ = 1979 م
- الحرب الصليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة ، د . ت
- العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة،د.ت
- الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت
- ثورة المساجد .. حجارة من سجيل، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت
- حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1414هـ = 1993م .
- الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، 1423هـ = 2002م
- الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م
- تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م
- دفاعا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د . ت
- التنوير .. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، 1417هـ = 1997م
- العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة ، د . ت

- واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر) ، 1414هـ= 1993م
- ثقافة التبعية: المنهج. الخصائص. التطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، 1417هـ= 1997 م
- انتصار الدم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1432هـ = 2011م
- المدافعة والمداولة: قراءة في السنن والتحولات، مكتبة سلمى الثقافية ،تطوان (المغرب) ، 2012م
- القيم الخلقية وإعجاز القرآن في رسائل النور عند النورسي، مفكرون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1440هـ=2019م.

سادسا- كتب أدبية ونقدية

- الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د . ت .
- الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1440هـ= 2019م. الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د . ت .
- حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م
- الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، 1427هـ=2007م .
- إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار(مصر)، 2008م
- حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م

- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأوقاف والشئون الإسـلامية، سلسلة روافد، الكويت، 1430 هـ = 2009 م .
- الحكاية كلها معاصرة(دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، 2011 م
- الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، 1418هـ = 1998م
- بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 2012 م .
- بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013 م
- مطولة على أحمد با كثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت
- مدرسة البيان في النثر الحديث، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2018 م
- لويس عوض : الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام ، القاهرة، 1414 هـ = 1994م
- نحو رواية إسلامية ، ملحق المجلة العربية (29)، الرياض ، 1420هـ = 1999م
- الزاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 1437 هـ = 2016م .
- المآذن العالية: رجال من ذهب، دار المقاصد للتوزيع والنشر، القاهرة، 1438هـ = 2017 م
- حكايات الجواري والعبيد (الرواية المضادة)، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 140هـ= 2019م

سابعا- إعلام:

- الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط2، دار الاعتصام، القاهرة، 1423 هـ = 1992م

ثامناً- كتب للأطفال:

- واحد من سبعة ،هيئة قصور الثقافة ، سلسلة كتاب قطر الندى العدد 164، القاهرة ، د . ت

تاسعا- كتب محققة:

- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية ، دار الفضيلة ، القاهرة ، 2010م
- طائفة من المؤلفين ، أحسن ما كتبت ، دار الفضيلة ، القاهرة ، 2010م
- المتنبي ، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة ، القاهرة
- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع) ، دار الفضيلة ، القاهرة .

***